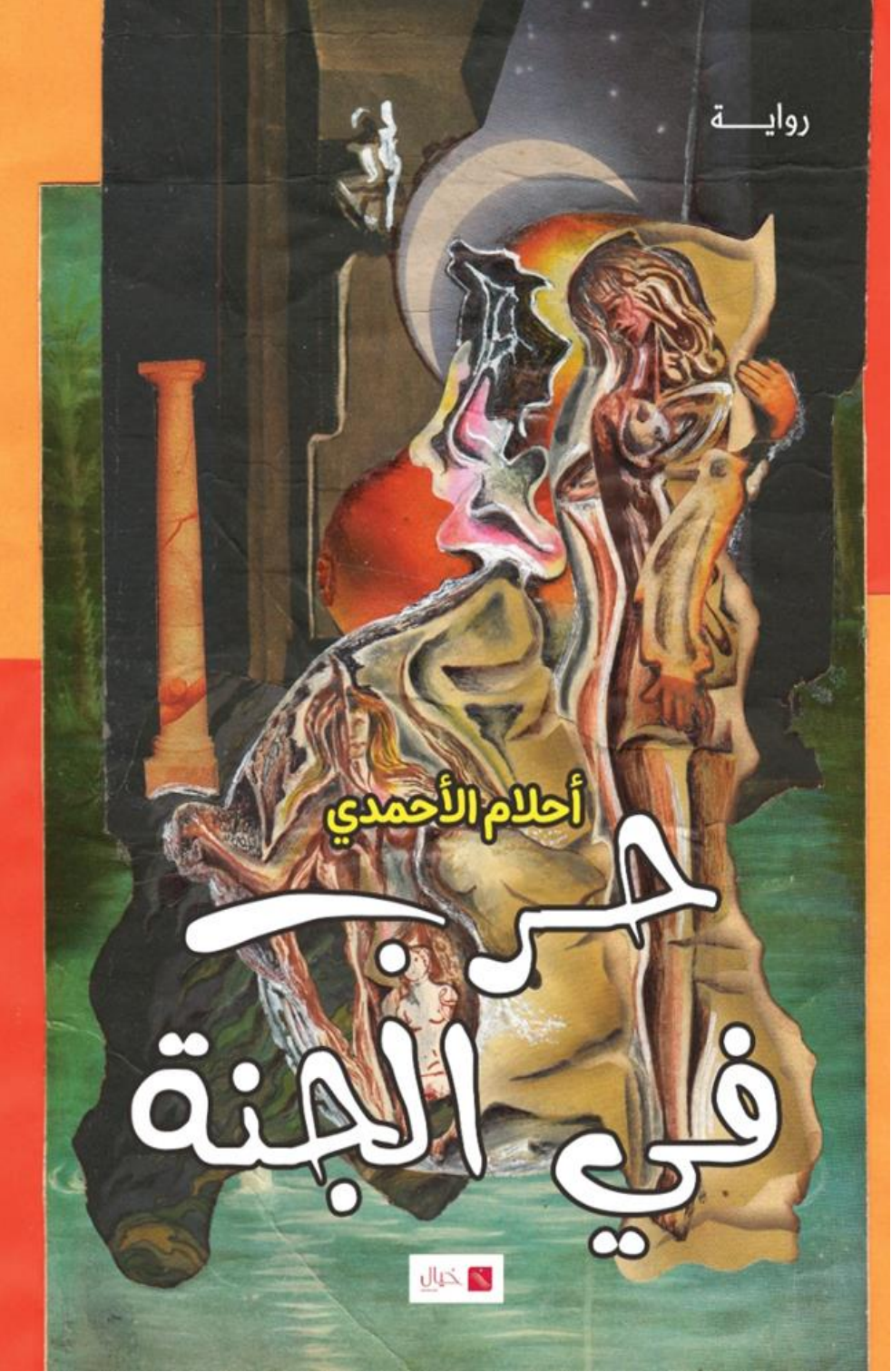
رواية
أحلام الأحمدي
حرب في الجنة
خيال

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك: 978-9931 -06-061-1
الإيداع القانوني : أفريل 2023.

أحلام الأحمدي

حرب في الجنة

رواية

بسم الله الرحمن الرحيم

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}

آل عمران الآية 14

فقيرة هي النفس التي تنظر إلى باطنها فتجد فراغا... فتمتد إلى خارجها لتقتني ما يسد لها هذا الفراغ.

أفلاطون.

إهداء

إلى قلبي وخمسة حروف.
أحلام.

صوت الريح... الذي يخترق طرق آريس الجبلية، يسمع له صفير هائم وكأنه محمل بالأوجاع.. يسافر نحو جبال ووديان تيكجدة السماوية، إلى صحاري وجنات هذه الأرض الممتدة كالقارة... ربما يفتش بلهفة الموجوع، عن شكل ملموس يحتويه كالجسد، لأنه قد يغار... يغار من مادة المطر والغيم والحجر والتراب، ويبحث بكآبته منذ الخليقة الأولى عن مادة تجسده.. عله يجد له شكلا... حتى لو كان من الغبار أو من الثلج أو حتى من تلك الصخور القاسية... هذا الصوت المصفر المرتحل بشجنه وغضبه المكبوت لكأنه يشبه ماسين.. يشبه روحه والتي لا يراها أي أحد... بينما يتحسسها هو... لربما صوت الريح الحزين هذا.. قد تلبس جسده.. ونحت ملامح وجهه، ليصبح مثل التماثيل الحزينة، بكل تلك التفاصيل الجامدة.. كلما نظرنا إليها وتمعنا فيها، إلا وحفَّزت فضولنا وتساؤلاتنا، عن أصل تلك المشاعر والأحداث والزمن والمكان والتاريخ، لربما تلك التفاصيل، هي من كرست بين ملامحها كل هذا الوجوم... فتبدو أحزانا عتيقة، موضوعة بين تقاسيمها بكل عناية لتذكرنا بذواتنا الخفية، والتي تحمل أكواما من الخطايا كأنها نحن.. إنها تتكرر وتتكرر... كلما تتالى نسلنا البشري... حقيقة حتمية عن النفس، حتى لو اختلفت التفاصيل فإنها قد تبدو شبيهة لنا.. لنشاهد أنفسنا بين ملامحها نصارع ضمائرنا، والغالب والمغلوب هم نحن بذواتنا... أليست الروح هي سر الحياة وأصل

الكينونة وحقيقة كل شيء؟.. فلم لا نستطيع أن نفرق بين عمق الروح وسطحية الجسد الذي يدثرها ويخفيها عن أنظارنا المحدودة دون بصيرة؟ بل... لعل هذا ما يحجب عنا السعادة وقيمة كل شيء.. وإن كانت المادة هي سعادتنا... فأين تلك السعادة إذن؟ لم لا نعيشها داخل أقاصينا العميقة؟ ونستشعرها بين رتابة أيامنا؟

إننا ضائعون... هنا وبين كل هذه المادة والشهوات... نصبح عميانا لأنها تتخذنا أعوانا لها... ثم تجعلنا عبيدا مهووسون بزخارفها ولذاتها ولحظاتها القصيرة... لنشيخ دون أن نعرف حقيقة عميقة، حقيقة تختفي وسط كتلة من الجوع والعطش والمال والحرب والشهوة والجنس... كما تختفي وراء حقيقة الروح بين اللذة الجسدية وصوفية غامضة مثلها، ومثل ماسين فالنساء دائما كن نقطة ضعفه، كن ينهن كل طاقة مغرية داخله، فيقف كل شيء داخله وقد استعد لتلبية نداءات جسده التي لا تتوقف لقد كان هذا سبب مجونه وفساده وغضب جده ووالده وأعمامه وأخواله وكل قبيلته بل وكل قرية آريس، المعلقة بين جبال تيكجدة وسمائها، أصبحت تبحث عن رأس ماسين.

لقد أصيب بلعنة الشغف بالجنس منذ بلوغه، لكن الحقيقة أنها منذ ولادته، كان عضوه الصغير دائم الانتصاب ورغم أنه طفل رضيع فقد كان دائم الاستثارة ربما كان يحلم

أو أنه مصاب بمرض أو حتى لعنة، أو قد يكون طفلا شهوانيا لدرجة مجنونة، لا أحد كان يعرف مصدر شهوته المفرطة في جسد لا يكاد يعرف النطق... عذبه هذا وشتت قلبه وعقله وتوضعت تلك الغاية الجائعة فوق كل شهواته ورغباته في هذه الحياة.

كل قوته استأصلتها هذه اللعنة التي لا حد لها، فبات ماديا منغمسا في الشهوة الجسدية فلا يكاد يستفيق.

امتلك ماسين أُمًّا عرافة، امتهنت العرافة بموروث من الأجداد، عشقت والده ياغورطة وسلبها عقلها وحواسها كان فارسا مغوارا مملوءا بجنون العظمة، لا يغريه الحب في شيء فهو يريد أن يفتك مكانة عسكرية في قرطاج، لكنها أسرته بتعاويذها، وجعلته لا يفكر إلا في أيور والدة ماسين الشهواني أنجبت له عشرة ذكور، لكنها أحبت أصغرهم بشكل مبالغ فيه كأنها لم تنجب أبدا، وكان متفردا منذ مخاضها به، أثبتت الطبيعة أن وليدها ماسين، كان مولودا للبرق والرعد والجمال والقبح، وبين آلام النهاروالليل مخاضها لم يكن سهلا كان عسيرا لا تهدئه أعشابها ولا كل تعاويذها، كأنها ستخرج جبلا من أحشائها، ولم يكن متواصلا أيضا، كأنه يهبها راحة ثم يفتك بها، مراوغ هذا الوليد النوميدي، إنه يلاعب الراحة والألم في أول ليلة من حياته.

تصلبت شرايين قلب يوغرطة تلك الليلة، خاف أن يفقد زوجته لتترك له عشرة صبيان، لا يفكرون سوى بالمعارك والقتال.

لم يفكر بآلامها ولا بعشرتها التي فرضتها عليه، وغيرت قدره الذي كان يحلم أن يعيشه فارسا بين أسوار قرطاج.

كل تفكيره كان منصبا في أولاده العشرة، والأغلب كان في ابنة تهدئ من روعه وقسوة واقعه.

كان يظن أنها ستنجب طفلة، فعشرة صبيان لا يهبونه الحب المفقود مع أيور، إنهم عشرة بقدر أصابع يده، لا ينشرون الأنس في البيت كما ستنشر هي، تمنى أمنيتان، في وسط عاصفة من البرق والرعد قلبت السكون لحرب والليل لنهار. أن تلد له أيور طفلة جميلة، وأن تكون ملكة قرطاج، فليتها تخرج من رحم هذه العرافة التي يمقتها، ومن هذا المخاض المختلط بتمرد السماء.

ولكن هذا الرعد والبرق، لا يبشر بميلاد أنثى، إن صوته كصوت طبول الحرب، ضوءه الخاطف كروح فارس عظيم يشق أبراج السماء المظلمة، يبشر كل نوميديا بفارس قادم نحو شمال إفريقيا، إنها نبوءة نوميدية قديمة كتبتها جدات أيور على أعلى قمة في جبال جرجرة، نبوءة لم تقلها العرافات فقط بل كتبتها حتى عروق البرق السماوية، وصوت لا تتكلم به إلا السماء.

أن ملكا تسكنه قوى الذئاب والرعد والبرق، سوف يحكم مملكة من وراء البحار دون حرب.

ولتلد أيور ماسين، لقد أسمته السخي، بلغة فينيقية ماسين هو السخي، الذي كان الصبي الحادي عشر، لقد كان يخطف قلوب كل من رآه وبارك لأيور وليدها، من أول ليلة له في قريته آريس تمكن منه الجمال، وصاغ ملامحه بنحت دقيق ومسترسل ومليء بالحنان، حتى أنه لا يشبه كل صبيانك يا ياغورطة، لا يشبه حتى صبيان آريس ولا كل نوميديا ولا حتى قرطاج.

كان ذلك قبل أن تكتمل صفاته الجسدية بأتم معناها ويتحول من فتى إلى رجل، تتقاتلن النساء عليه بصمت الخوف من فضائح الرغبة.

كبر ماسين، أصبحت أكتافه أعرض، جسده ممشوق وطويل مثل فلافيوس هرقل، عيونه سوداء واسعة أهدابها كثيفة حالكة السواد، أنفه البربري متناسق بشكل دقق في نحته وخلقه، شعر حريري، ينسدل لآخر رقبته، لحية متناسقة مهذبة، صوت رخيم شجي، كان يمتلك جاذبية لا تقاوم، ربما دماء الذكورة المتأصلة فيه، ترسل مورثات أبطال الأساطير والتي تثير كل ذاك الكبت وتلمس أعماق الأريسيات بشكل فاتن لا يقاوم.

نساء تلك القرية، تشبثن به كالمجنونات، هن أردنه مثلما أرادهن، وكن بسهولة طوع أمره، بل ربما حتى قبل أن يبدي أي رغبة نحوهن.

في بادئ الأمر، كان هذا مجرد افتخار واكتشاف تجره مغامراته المتتالية، والتي لا تشبع نهمه الجنسي أبدا، لا تشبع أي شيء من رغباته، كلما كثرت، كلما اشتهى أكثروازداد عطشه الرهيب باستمرار، وكأنه السراب للعطشى ليصبح عذابا لماسين، رحلة البحث عن اكتمال النشوة أفسدت روحه وعكرت مزاجه، وجعلته عصبيا متهورا غاضبا طوال الوقت لقد شغله الأمر عن حقيقته، ودمر جانبا عظيما من نفسه. لكن ذلك كان بعد فوات الأوان لقد انتشر في كل القرية أمره خسر كل أصدقائه أشقائه أبناء عمومته وأبناء أخواله وتفرعت الشكوى من رغباته الجامحة، في كل بيت من آريس أصبح الأمر خطيرا لحد قد يودي بحياته، ولم يعد إخفاء أمره ينفعه في شيء.

كان لا بد على والده من إرساله خارج هذه القرية بشكل عاجل، وإلا فقده للأبد، لقد أصبح الجميع يتكلم عنه بغضب ويريدون الثأر لشرف انتهكه ماسين، وهم لا يعلمون أن نساء آريس الجبلية، جميعهن كن يحملن نفس وزر هذا الشهواني... أغواهن دون أن ينوي ذلك، يمتلك رجولة وشهوة متقدة وفطرية، تستولي على كل عرق منه وكأنه مجبور على الذنب

والخطيئة، فهو مولود بعلة لا يستطيع التنكر لها وتركها مرمية خارج عقله وتفكيره.

لا مهرب لماسين من نفسه، لا قدرة له على إدمانه المتغلغل في كل شيء من جسده ومادته.

القرية مبنية بين جبال تيكجدة، معلقة على قلب إحدى جبالها، قبل أن يولد المسيح، تسللت الأساطير لتخلق نوميديا بدأت تصور بذرتها، وترسل ضوءا يكتب حضارة منبثقة مستترة عن التاريخ همشتها اللغات، وسلبتنا حقيقتها... جاءتنا تملأها الأساطير، تسكنها تخيلات نصطادها كي نحلم بنوميديا التي ظهرت من رأس إفريقيا من شمال القارة السوداء، كي نعمر فراغاتها بأشباه الحقيقة.

قرية آريس، تصطف بها مساكن حجرية، فوق أسطحها قوالب حجرية أيضا، موضوعة بهندسة إغريقية، فوق جبل عال، فوق قمته، ستظهر لك هذه القرية، مشبعة بحسن مستوحى من عظمة قرطاج نساؤها يلبسن صيغة فضية ملونة، وجواهر كالملكات وفساتينا مقسمة على أجسادهن بقطع متناوبة، فتصنع تدرجات فاتنة.

نساء نوميديا شرسات، جمالهن في ذلك، فقلوبهن مغلقة طوال الوقت، لكنها معلقة بالمغامرة، بحب معرفة من يستحقهن، هن يحببن المعارك لأجلهن، ويمنحن قلوبهن لواحد حارب العالم كله لينال رضى واحدة فقط.

كانت الليلة التي هرب فيها، شديدة البرودة، صوت الريح وقوته، التي تفرق حتى بين ثقل حبيبات البرد المتساقطة، لم تؤجل موعده مع الهرب، حتى أنه لم يلبس لباسا كافيا، ليحميه من ذلك، لا قميص يلبسه، لقد كان جسده عاريا بعد أن هرب بروحه من أحضان إحداهن... أعطته والدته أيور الباكية المنتحبة صرة ربطها على ظهره وخرج هاربا بنفسه، من عشرات المتآمرين والغاضبين والذين يبحثون عنه، نحو وجهة يدرك أنها أيضا قد تكون مميتة، يجري دون أن يلتفت وراءه، منظر السيوف والسكاكين والوجوه الغاضبة، التي ارتسمت على وجه والده المفزوع، وهو ينقل له الخبر، جعلته متأكدا أنه سيموت تلك الليلة.

اتجه نحو واد الجنية، الذي يخافه الجميع ويمتنعون عن سلوك دربه، حتى في وضح النهار، والشمس في كبد السماء يرونه واد مسكون بعشائر الجن، الذين يتخطفون زواره وعابريه، ويأخذونهم دون رجعة، ودون أمل بالعودة للديار، لم يملك خيارا آخر، إما الموت على أيادي من عاش معهم طيلة حياته، أو الموت على أيادي العفاريت والتي على الأقل، لا تعرفه كما كان هو، لا يعرف منهم أحدا، هم ليسوا بأهله ولا أحبابه مجرد أرواح غاضبة مستترة تتأهب لصيد البشر ورمي جثثهم أسفل الواد، لقد تشكلت لديه فكرة وحيدة وهي الهرب بروحه من قريته، نحو طريق مملوءة بأساطير وحكايا عن ملوك الجن

والمردة والعفاريت والسحرة، عن جماجم بشرية مرسومة بطلاسم من حبر أرجواني كانت كقرابين للشياطين، سكنتها العناكب الغريبة، الملونة بألوان وأشكال تغرقك في التفاصيل..

لا يهم، كلاهما موتة واحدة، ولكنها موتة مختلفة ربما أو تحمل نكهة التحدي والمغامرة وكسر الخوف بخوف أعظم منه.

كان يجري في الظلام، حتى وصل لحدود الواد، واد الجنية اقشعر بدنه، لقد كان عميقا شديد السواد والظلمة، صوت طوفانه وسواده، كأنه عقاب من الجحيم يحده جبلان يرتفعان كلما سار السائر نحو الشمال وينخفضان حتى يتداخلان مع حدود أرضه كلما توجه السائرون نحو الجنوب.

كان يعرف أن غضب رجال آريس سيجعلهم يتبعونه نحو الواد، لا شيء يطفئ غضبهم، نارهم متقدة والغيرة على نسائهم من ماسين تحرق الأخضر واليابس، لكنه يعلم أنهم سيمسكونه إن اتجه نحو الجنوب، الطريق هناك أسهل من الشمال أغمض عينيه، وتكلم مع قوة عظمى تحسسها في أمس حاجته للنجاة، لأول مرة في حياته، تلاشت ماديته الطاغية أمام الخوف من الموت والفناء، وتكلم مع قوة خفية وحدها بعد أن جمع كل الخوارق فيها، لقد كانت موجودة في فؤاده وقد غفل عنها وقت مرحه...

أراد النجاة... ومن منا لا يريد النجاة؟... من منا يعيش وقد استغنى بكامل إرادته عن هذه القوة السماوية الجبارة؟ وسط

شدة تدمر الروح، وتجزئ القلب، فعندما يتخلى كل الناس عنا، جميع البشر عنا، سينير مكان عميق داخلنا، مكان كان معتما في نقطة قبل أن نفقد فيها كل شيء...

لم يكن ماسين سيئا، لم يكن يوما كذلك، كان طيبا يمتلك قلبا مليئا بالدفء والحنان، كريما لدرجة أنه قد يعطيك كل ما يملكه، في لحظة تحتاجه فيها، يكاد أن يكون مكتملا مثاليا فريدا، غير أن شهوانيته المرضية والمجنونة دمرت علاقاته مع الجميع حتى مع أقرب الناس إليه، كان لا يتحكم في رغبته الجنسية الجامحة، فهي تسيطر عليه في كل الوقت، في أحلامه ويقظته، أكله وشربه، إنها تفوق إرادته، تتحكم فيه وتقوده نحو حتفه، ولا يستطيع كبتها كما أنه لا يشعر بالندم أبدا لعلاقاته الكثيرة، إنها محرمة في قريته، في كل بقعة تحكمها الأعراف والقوانين، كانت خطيئة وسمعة سيئة ترافقه لآخر يوم في حياته، ولكنهم لا يعلمون عن سره الرهيب شيئا، حكموا عليه بالموت رجما دون عطف ولا رأفة، وهو لا يمتلك من أمره شيئا، لا يستطيع أن يفكر خارج هذه الدائرة فبذل كل وقته ليشبعها ويرضيها، وعندما علم أنها أقوى منه، وأنها تتحكم فيه وتسطر طريقه، استسلم لها وقرر أن يقتل نفسه ودون رجعة ولكنه وبينما هو يصارع موته بعد أن وضع حافة سكينه على رقبته، أنقذته أمه المنتحبة والباكية، أقسمت بكل آلهتها، إن فعل بنفسه شيئا أو استسلم للموت، أن تحرق نفسها وهي

حية لتذروها الرياح، فَرَقَّ قلبه رحمة بها ولم تتركه حتى وعدها بأن يناضل لكي يعيش وإن كان لا يعيش. واكتفى بنصيبه الذي لا يحتمل ضغطه ولا يقدر على عذابه.

شيوخ ورجال نوميديا تسري في عروقهم غيرة حمراء نساؤهم رمز رجولتهم، لا يمكن أن يعشن بعيدا عن أنظارهم كما يردن، إنه النوميدي شديد الغيرة، الذي لا يرأف بمن يأخذ ممتلكاته، فكيف سترأف رجال آريس بالشهواني ماسين؟ لقد أخذ عقل وأفئدة وأجساد كل نسائهم، ولكنه غير بصير.. منغمس مشغول في بلائه رغما عنه، لقد كان يراها مجرد شيء وجد لينفس عنه، ليصرخ ملء صوته.. ليتنهد بعدها ويستفرغ تلك الطاقة الرهيبة التي لا تنضب لديه... ولا تتوقف... إنها تسحبه نحوها إليه.. تسحبه... ثم تتغلب عليه بشكل فظيع لقد كان يحلق بهن لعالم المتعة، إنه كالساحر في نظرهن يستطيع أن يكشف دواخلهن ويمزج هذه العوالق المدفونة والمخبأة لتتنفس مشاعرهن بين ذراعي ماسين، فكن معه يتعرفن على الحب بماديته اللذيذة ويدخلن لعالم كان مفتاح بابه لديه وكأنهن في الجنة، فكيف سيتركن جنة ماسين؟ كيف سيتغلبن على قلوبهن المشغولة به، أما هو... فقد كانت نار شهوته تزداد.. وتجتاحه الرغبة في الوصول إلى النهاية... النهاية التي يراها على وجوههن بالضبط.. ولكن كان ذلك مثل السراب إليه.... أصبح يغار من متعتهن التي يصنعها لهن، من سعادتهن

وسط أحضانه. لأنه لا ينال من قوته الجنسية إلا السراب... شغله عن الندم البحث عن النهاية.. عن الشبق.. عن الوصول... ولكنه لا يصل لما يصلن إليه... صراخهن الذي يأكل شهوته ويزيدها نارا لا تطفئها كل نساء الأرض... كان يتساءل أحيانا... هل خلقت هكذا لأجل أن أمتعهن بهذه الصورة؟.. إنني أريد أن أكون في تلك الجنة التي أصنعها لهن... إنني أمتلك جنة مليئة بالشهوة والمتعة.... إنني أملكها ولا أتلذذ بها مثلهن.... هل هي لعنة؟ هل أنا تحت تعويذة ما؟ هل أنا سعيد أم تعيس؟ كان ماسين يضيع داخله هو... لقد كان في بلاء عظيم... وكأنها حرب في الجنة.

أما علاقاته النسائية فقد أصبحت مكانا للصراع بين كل أولئك النسوة، كلهن تعلقن بجسده بجاذبيته المجنونة بطريقته الرجولية جدا في احتواء رغباتهن وإخراج مشاعر خالصة من الجنون والعشق والشهوة، بين ذراعي ماسين تنسلخ أرواحهن عن أجسادهن كنسمة، يرسلهن خارج حدود العقل يصبحن مجنونات مجنونات، كان شهوانيا بطريقة مَرَضية وأصبحت فوضى داخله، وهن بتن عاشقات بطريقة مجنونة وهوسية، لقد آذاه هذا، سلط عليه كل رجال آريس، وأدخله في مؤامرات نسائية لا نهاية لها، كانت عائلته تنجر دائما نحو خصومات مميتة بينهم وبين أهالي القرية، إخوته العشر كانوا يتصدون للجميع ويخفونه عن أعينهم، لكن إلى متى؟ فالثأر

والغيرة والانتقام فوق أياديهم، لا يوجد حل إلا خروجه من آريس، وكان ذلك في هذه الليلة المطيرة التي اختلط برقها ورعدها وبردها بغضب وخوف، بطلب للموت، وطلب آخر للنجاة.

اتسعت أحداق ماسين التي تبحث عن الخلاص، نحو جبال واد الجنية، الشمال هو الطريق للنجاة، هكذا كان يقول وأسنانه تصطك مع بعضها، تكاد تسمعها من ميل الخوف والبرد، يشكلان توترا لا يستقيم به صبره، وكان هذا آخر همه تلك الليلة الباردة والعاصفة، لربما هي سبب نجاته، كانت السماء تنير كلما نثر البرق عروقه السماوية ينير ضوءه المتتالي تلك الظلمة، كأنه من السماء يوجهه وينقذه منهم، صوت الرعد يخفي صوت أسنانه المصطكة مع بعضها وصوت ارتجافه أيضا، إنه يخترق حدود واد الجنية الجبلية، ليبدأ بممارسة مشيته نحو حتفه الذي كان يظنه، طريق يضيء مرة ومرة يظلم، كان يسمع صوت الكلاب، الذئاب، يخيل إليه أيضا أن السماء تتوسع كالبالون، يظنها والبرق يخطف الظلام من الليل فينيره، أنه يرى جنيات تطير فوق عروق البرق، جنيات يثرنه مرة أخرى.... ابتسم ثم ضحك، نعت نفسه بالمجنون، هذه الشهوة ستصبح كائنا منفصلا عنه، يتملك جسده، إن شهوته لا تعبأ بخوفه، إنها تعيش عالمها الحالم، تبحث عن الأنوثة وإن كانت خيالية وضرب من ضروب هوسه السقيم، شهوة لا تهمها

روح ماسين لا تهمها مخاوفه وكل صعابه وبلائه ومشاكله، إنها رغبة شرسة تغريه في قمة روعه وترسم له جنيات ذات أجساد ضوئية، مكتملة الإغراء وذات أثداء مكورة وطرية، بطونها تحمل سرة مثيرة سرة يقحم فيها كل جنونه.... مسكين ماسين بلاؤه فوق إرادته، إنه يسيطر عليه ويكبش فيه، ليصبح كائنا يعيش معه، ليصبح سيدا عليه... تمنى لو يموت هذه الليلة ويتحرر من وعد أيور، كيف له أن يقاتل ليعيش مع هذه الشهوة القاتلة؟ كيف له أن يعيش وصوتها الشيطاني يتملك ذاته بل كلها ويصبح نداء لا مهرب له منه.

كان قد مشى فوق الجبل حتى وصل لحد أصبح يستعمل يديه ورجليه معا للصعود، أظلمت السماء ولكن البرد اشتد اشتد عليه كثيرا، لا أظن أن أهالي القرية الغاضبون سيتجهون صوب الشمال في هذه الليلة الكحلاء، هكذا خاطب نفسه، كان لا بد له أن يقرر، إما الاستمرار في السير نحو الجهة الأخرى، فينهي الآرسيون عليه، أم العودة للبحث عن كهف أو مكان يبيت فيه، لكنه خيل إليه، أنهم لن ييأسوا حتى يجدونه ثم أن الفجر بدأ يكشف عن وهجه، وميضه يريه الطريق التي سلكها، لم يصدق ذلك، هل تسلقت كل هذا العلو؟ هل فعلت هذا في هذا الوقت القصير؟ إنه الخوف، الخوف في بعض الأحيان، يغير الزمن داخل عقولنا، لن يخيرنا للنجاة سيقذفنا

نحوه قذفا، ويوهمنا أن الوقت قصير جدا ويمكننا أن نصل.. لو هربنا من كل ما يخيفنا وسننجوا... فهل سننجوا إن هربنا؟

الطريق الجبلي منحدره غارق في العمق، أصبح مع تنفس الصبح جليا، ظاهرا بعض الشيء لكنه مظلم كلما امتد البصر أسفله، أراد أن يكمل المسير، يريد أن يخرج من تلك القرية التي أقحمته رغباته السيدة عليه، في علاقات لا طائل منها، في الحقيقة أسر لنفسه، أنه أحمق كيف له أن يبقى كل ذلك الوقت في تلك القرية المشؤومة نساء وصبايا آريس، يردن أخذ جنته المحرمة عليه، إنهن لا يحببنه دون شهوته المتقدة، حتى هو كان لا يحب نفسه دونها، شهق وقد أخذ نفسا عميقا وقال:

"لا بد أنها آريس، تلك القرية.. إنها منحوسة ممرضة، لا بد أنها هي من تقحمني في لعنتي هاته، كيف لي أن أخاف من واد كهذا؟ واد مملوء بالحجارة والكهوف والأشجار المتشابكة، إننا حمقى... لالا.. إنني الأحمق الوحيد، الذي استمر في آريس المليئة بالعرافات والساحرات.."

أحس بكم من راحة الضمير، لقد رمى كل عبئه على القرية ونسائها، وقذفه نحوهن وارتاح، ثم استهزأ بواد الجنية، وصرخ وقد فتح ذراعاه، ونفش صدره، قائلا:

"أيتها الجنية، أيتها العاهرة الجميلة، لقد دخلت واديك دخلته فماذا ستفعلين؟ هل ستخطفينني؟ هل ستفعلين؟ إن فعلت ذلك أعدك بليلة حمراء..."

وقبل أن يكمل تباهيه، ويحتفل بانتصاره على الموت الذي كان يناشده والخوف الذي تغلغل فيه، وتلك العفاريت والمردة انزلقت قدمه نحو القاع السحيق تتضاربه الحجارة والأشجار المتشابكة، تنتقم لنكران معروفها ربما، وترسله لقاع العفاريت ذاته...

نحن البشر، نضعف وقت ضعفنا، نصبح مساكين نتوسل كل شيء لينقذنا في لحظة وقبل تلك اللحظة، كنا نتجبر على هذا الخوف بذاته برغبة في انتحاروموت، نكثر من النذور، ومن النظر بتوسل للسماء، أن ترسل لنا من ينقذنا، وإن كان لا بد لتنقذنا هي بجلالة قدرها..

خصومة مع الألم...

صوت يشبه الصافرة، ألم فظيع منتشر في كل جسده رأسه ثقيلة جدا، كأنها محشوة بأطنان من الحجارة، كان ماسين يئن، يئن بشدة، لا يستطيع فتح عينيه المتورمتين المغلوقة من شدة التورم، يداه المكسورتان ألمهما فظيع هو الآخر، البرد الظلمة، الجوع، وعاد أخيرا له الخوف كوجه مقنع وبشكل جديد.. استسلم للألم ترك نفسه له، انتظر الموت وليته يأتي سريعا، لينهي ما بدأه.

مهلا... إنه لا يتذكر كيف حدث له هذا! لا يذكر شيئا حتى اسمه، شكله.. لا هوية له، لا ماض ولا حاضر يعرفه.. ابتسم باستهزاء، ولكن هذا لن يغير من حقيقة موته وحيدا، في قاع سحيقة، لا يغير من ألمه الذي تسلل لكل مسامة في جسده..

شعور غريب، أن تعرف موعد موتك، كيف لهذا الشعور أن يجعل منا بشر؟ نشبه نوعا ما لمخلوقات لا ذنوب لديها تنتظر تجربة جديدة، مخيفة نعم، لأننا نتصور أجسادنا ستبلى ستفنى، ستتآكلها الديدان وستختفي الملامح، تتحول لعظام داخل التراب، الموت صورته مخيفة وبشعة، أعرف ذلك ولكنه مريح أيضا، إنه نهاية لمكابدة رعناء لهذه الحياة التافهة وغير العادلة، التي سنبتلى فيها بعذابات كثيرة.. الموت مريح مريح من هذا الألم الذي يحطمنا ويحطم جسد ماسين.

ثم غاب عن الوعي، لا سبيل لمعرفة وقت غيبوبته، كل ما شعر به، لعقات على وجهه، لسان صغير دافئ، يلعق وجهه الدامي والمتجمد، فتح عينيه، إنه يرى جزءا من العالم، سماء رمادية، تمن ببعض القطرات على جسده تكفي أن ترطب لسانه المر والجاف والذي يحمل طعما معدنيا، لقد أخرجه قليلا طلبا لشيء من الماء، وجرو ذئب أبيض، بعيون ملونة كالمجرات، تلاصق وجهه، كان ظريفا كأنه ضائع هو الآخر مثله في هذا العمق السحيق، هل هو أنيس جديد؟ أم أنه الموت قلص من حجمه وسوء منظره لجرو صغير لطيف؟ هل يرفق الموت بنا في بعض الأحيان؟ يرحم ضعفنا بعد تكبر وعناد؟ تحسس ماسين أوجاعه المنتشرة على كامل جسده، لكن ألمه قد خف، استطاع تحريك بعض أصابعه، حرك يده اليمنى كان هناك بعض الألم، لكنه احتمله، وعندما حرك يده اليسرى عاوده الدوار والغثيان، وعاوده وجع لا يقاوم.

خصم هذا الوجع لماسين المسكين.. الذي خوى عقله من الأفكار، معركة متعبة جدا، ألم روحي عميق تثيره شهوته تارة ووجع جسدي لا يحتمل تارة أخرى.. وفي الحقيقة ينتصر الألم في كثير من الأحيان علينا، تجارب فاشلة كثيرة قد خضناها معه، يمزقنا... يغير حتى ملامحنا وعمق نظرتنا، ولكن... ما معنى هذه الخصومة ببداية مستسلمة؟ لا شيء يشرف الإنسان سوى الانتصار على ذاته، قبل الانتصار على أي شيء آخر... ما

معنى أن نموت دون حرب أو معركة أو حتى مقاومة؟ غريزة الإنسان السامية فطرته الأولى كانت ألم الأنفاس الباردة التي تخترق رئتاه... لقد انتصرنا على الألم منذ الوهلة الأولى لخلقنا كبشر... فكيف سنموت عبثا؟

كانت يداه مكسورتان، لكن كسر اليد اليمنى أهون من كسر يسراه، رأسه دامية ومليئة بالتورمات، عيناه أيضا قدمه اليسرى مكسورة، مليئة بالجراح، تفقد رجله اليمنى، رغم ألمها، ولكنها أفضل.

سمع صوت جرو الذئب الذي كان يلعق وجهه، أدار رأسه بصعوبة ليراه، كان يتألم هو الآخر، رجله أيضا تكاد أن تكون مقطوعة، تمدد ذلك الجرو الصغير، كأنه سيموت جوعا وألما.

هناك مؤنس له، لكنه لا حول ولا قوة لديه.

ثم حول نظره صوب كل ما يحيطه، كان في واد سحيقة فوقه جبل على كل حد، أشجار مائلة متشابكة، تخرج من الصخور، كأنها تلدها من جوفها الصخرية وتنظر له كي تأكله العفاريت أو الذئاب، وهناك حشائش كثيرة، تنبت متوحشة ومتوحدة مع العزلة.

نظر لمكان سقوطه، إنه يفترش الحصى الرقيقة التي يليها عرق طويل من الماء العذب، تذكر أنه عطش، الماء بجانبه فكيف السبيل إليه؟

كان لا بد له من المقاومة، أحس أن ظهره، تحمل شيئا لا بد أن تلك الصرة المحشوة، التي أعطتها والدته أيور والتي نسي هو تفاصيلها، قد حمت ظهره من الكسر، تملكه الأمل، حتما أن في هذه الحشوة، شيء قد ينفعه، وكان عليه الاتكاء، مجاراة وجعه بالكثير من الصبر، لا حيلة لديه.

واستجمع كل قواه، يشجع ذاته أنه يستطيع، حتى لو أخذ الكثير من الوقت، لكنه سيقدر على النهوض، وهكذا بدأ يتحرك، الصراخ قد يخفف عنه، ولكن.. لا قوة يرتجيها به، بل لا يستطيعه رغم رغبته فيه، يدخر كل قواه للمقاومة، ومر الزمن، ساعة ربما، أو قد تكون أكثر لكنه نجح، في التحرك أهمل أوجاعه، واقترب من الماء، وضع تلك الصرة المربوطة على ظهره أمامه، فتحها على مهل شديد، وجد كأسا من المعدن فملأه، شرب حتى ارتوى والتفت لجرو الذئب الصغير، لم يكن بعيدا عنه، أمال له الكأس ليلعق بعض الماء هو الآخر.

ثم فتش صرة والدته أيور، والتي كان بها بعض الأغراض كبعض الأعشاب الطبية، سِكِّينة صغيرة، كيس من الجلد به عسل النحل، والزاد كسرة وجبن يبس وزبدة طرية ولحاف صوفي وبعض الأقمشة، لا بد أن من وضع لي كل هذه الأشياء شخص يحبني ويهتم بي، وقد همس لنفسه بهذا، نعم يحبك لأنها والدتك يا ماسين، أيها الشهواني الذي يطرق أمكنة مجهولة بذاكرة منعدمة.

أراد أن يأكل شيئا، لكن فمه بالكاد يستطيع أن يفتحه أخذ من العسل ووضعه في كأس الماء وشرب، وفعل كذلك لجرو الذئب، بعد دقائق أحس ببعض الطاقة، فأرجع عظمه المكسورة بعناء عظيم، ومسح دماءه التي تغطيه كشف عن جراحه ووضع بعض العسل عليها ثم ربطها ببعض أقمشة أيور، حاول جبر يده ورجله اليسرى، قاوم رغم أنفه كل وجعه ولف ما استطاع من جروحه وكسوره، ثم لبس ما وجده والتفت لجرو الذئب المسكين زحف نحوه، فهز رأسه بعيون ضعيفة وحزينة، لابد أنه لا يتجاوز الشهر، لكن قدمه في حالة رثة، مسح عليه، قربه منه كان دافئا ويرتجف، فبكى ماسين أحس بارتجاف أيضا، قلبه الفارغ من كل شيء، اشتعل شفقة على نفسه وعلى جروه، احتضنه لديه، ووضع على قدمه عسلا ورباطة، وافترش لحافه وحاول الاتكاء.

ويمضي الوقت، كان يتحسن شيئا فشيئا، وقد اعتمد على العسل والماء فجعله زاده ودواءه، ثم استطاع في ظرف العشرة أيام أن ينهض ويتمشى هو وجروه الصغير، كان دون ذاكرة ولا وجهة ولا هدف، سوى إكمال طريقه، فصنع لنفسه عصا لتعينه على سيره.

ماسين الشهواني، كان في أكثر الأماكن المخيفة، في وسط واد عميقة متعرجة عروقها، مليئة بالأصوات الغريبة بالخيالات التي تحسها حولك تراقبك بحواس خارقة للطبيعة، كأن واد

الجنية يمنحه فرصة أخرى، لغرض قدري ربما، أو كأنه تحداه ساخرا من خوفه، خوفه القديم الذي اختفى وحل مكانه توجس آخر، من شيء غامض وغير محسوس، من شيء يثير حتى حواس جرو ذئبه الصغير، وقشعريرة جسد ماسين.

نال الجوع منهما، كلاهما ضعيف جدا، ترك بعض العسل لجروه، كان يضيف له الماء ويرضعه بفم كأسه الصغيرة، كانت حياته متروكة للقدر، فلن يعوض العسل حليب أمه، ولكن لا حيلة لديه، أما هو، فقد أكل أوراق الأشجار.. وحتى بعض الفطر والثمار التي لم تنضج بعد والتي لا يعرف حتى اسمها لكنها كانت مفيدة، ربما لأن خصائصها الطبية غذت دماءه من أثر أي التهاب فساعدته في تسريع شفائه.

لكن ذاكرته لم تشف، لا يذكر من عالمه شيئا، حتى أحلامه لا تجرفه نحو ملامح من كان يعرفهم، كانت كلها عن ممارسات مثيرة مع نساء، مملوءة أجسادهن بالجمال أحيانا كن بشريات مليئات بالأنوثة، مستسلمات له بجميع أحاسيسهن كما تسول له خيالاته ورغباته المجنونة وأحيانا أخرى كن كائنات مليئات بالضوء، يغنين له يتوسلن له ليقبلهن كان غاطسا في اللذة وغارقا فيها أحلامه ما تبعث فيه الحياة.. لا غير.. لا شيء ينبئ وينعش ذكرياته بحقيقته... إلا شيء واحد.

شهوانيته... بقت على حالها، رغبته ملتهبة مشتعلة وكلما تماثل للشفاء، زادت هي كالبركان وامتلأت بها حممه.

كثرت تساؤلاته... هل أحلامي البغية هي سبب استثارتي؟ ولكن ما سبب هذه المنامات؟ هذا الواد مثير للخوف، ولا يثير أي رغبة أخرى؟ هل سقوطي هو السبب في هذا الجنون الثائر داخل هذا الجسد المتكسر؟ ولكن ما سبب وجودي في مكان لا بشر عليه؟...

لا تنتهي أسئلة ماسين وحيرته، سؤال يجر آخر فانشغل بالتفكير عن طول طريقه، وجد نفسه في زمن مختصر في مكان خارج الواد، في غابة أخرى، كأنها لم تعرف للإنسان وجود....

فتح فمه، ابتسم بعد أن مرر نظره في كل اتجاهاتها رفع الجرو رأسه أيضا، كأنه يريد استقصاء الأمر مع رفيق جراحه ودربه المجهولة، نظر إليه ماسين وهو يبتسم قائلا:

"يا صغيري، لا تخف، لن نموت هنا، أعدك بهذا..."

وواصل سيره، كان همه جروه الصغير، كيف سيؤمن له الحليب، أراده أن يعيش من كل جوارحه، وقد يفديه بحياته لو تطلب الأمر، لماذا؟ ربما لأن ماسين أحس بأن هذا الجرو هو ذاته، لقد وجده بجانبه بقدم منزوعة العظم يلمها بعض الجلد الممزق، كان جائعا مثله وحيدا لا عائلة تحيطه بحنانها ولا أحد يضمد جراحه في هذا الوادي السحيق مثله أيضا..

ما قصة هذا الجرو يا ترى؟ كيف وصل جانب ماسين وبتلك الحالة؟...

هل يمكن أنه ظل الطريق وسقط هو الآخر من علو سحيق مثله؟ لا أحد يعرف، لا أحد يدرك..

تبدو الغابة دافئة، تمتد أشجارها لأبعاد بعيدة، كأنها لا تنتهي، وكان لا بد من مواصلة المسير، ومرت ساعات حتى تداخل الليل مع نهاية الغروب، وأشعل بحجر الصوان بعض الأغصان، لم يبق منها سوى بعض الأعواد القليلة كان على بعض الأشجار أكواز الصنوبر، وضعها هي الأخرى على النار عطرت المكان.. عطر الأكواز يثير شاعريته... فكلم جروه حتى يكسر السكون والهتان الذي يحيطه:

"هل يمكن أن أكون شاعرا أيها الذئب الصغير؟ هل أنا أمير؟.. لربما أنا ملك لهذه الغابات... يا ليتني كنت كذلك ولكن لا أظن هذا، انظر.. تمعن في تفاصيل هذا اللحاف البسيط وهذا الكيس الجلدي الذي لا يحمله إلا رعاة الأغنام.. ستدرك دون ريب يا صديقي، أنني مجرد صعلوك قادته حكاية ما.. ليسقط هنا وتحتضنه هذه الظلمة وهذه العزلة المربكة.. صديقك صعلوك"

ثم ضحك.... بصوت ملأ سكون الغابة المظلم.

نضب العسل لجرو الذئب، وأصبح هزيلا متراخي الأطراف لا يبشر نور عينيه بحياة طويلة، ماسين تعلق بجروه الصغير في وسط فراغه ووحدته، ظهر له هو من حزنه وحيرته ودهشته المتفاقمة وسط قلبه.

لم يجد من بد، سوى غلي بعض الحشائش له، لقد أصبح يقترب من الشهرين، لكن جسمه بات نحيلا أكثر مما كان عندما وجده أول مرة.

ماذا يصنع ليعيد له قوته؟ هل يصطاد له، فيأكل بعض اللحم؟ ربما أنه يحتاج للحم بدل الحليب، لهذا هزل كثيرا.

كما أن ماسين اشتهى طعمه أيضا، مل من أكل الأوراق وبذور أكواز الصنوبر، كانت الغابة مظلمة، لكن سماءها تلك الليلة مزينة بملايير النجوم، تتضح أنوارها كلغة فلكية، إنها تتكلم معنا، تحاور بمواقعها الأخاذة، أرواحنا الساكنة داخل أجساد مليئة بالرتابة.

رفع رأسه لهذه السماء الممتلئة بلغة الكون الجميلة والغامضة، وتودد لها، لقد وقع في غرامها كأنه لأول مرة يراها.

تأخذنا مصائبنا بعيدا عن آيات الله، تشغلنا عن رؤية زاوية مستترة متخفية، صعبة أن تنالها أنظارنا.

مواقع النجوم موضوعة دون عبث، لأن العبث لا يصنع هذا الجمال المترامي دون نهاية، هل هي أذرع ممتدة من النجوم تحتضننا؟

انتعشت روحه الشاعرية، تملص من بعض أفكاره الشهوانية، وعقد العزم، أن يصبح صيادا في هذه اللحظة لأجل إنقاذ جروه الصغير.

لكن الصيد أيها الشهواني يحتاج لسلاح! هكذا خاطب نفسه مفكرا، تلك السِكِّينة الصغيرة، لن تذبح حتى أرنبا ولكن لا حيلة له إلا الدخول في فخ مغامرة الصيد.

وقف، حمل جروه ولفه بجزء من لحافه، خاطبه أنه لن يعود إلا وهو يحمل قطعة من اللحم، والتي ستكون عشاءه المتأخر.

حمل صرته وقد وضع فيها بعض أغصان أشجار الصنوبر حتى يشعلها كلما انطفأت إحداها، وانطلق داخل الغابة الموحشة، لا يعرف ما يصطاد، لكنه اتخذ قراره وسبيله وانتهى الأمر.

لم يمض الكثير من الوقت، حتى رأى صغير خنزير وأمه كانت أمه مخيفة ضخمة الجثة، أما هو فيبدو حديث الولادة، لا حل لديه، الجوع يفتك به حد الموت هو وجروه كما أن تلك الأرانب الخبيثة سريعة لا يمكنه اللحاق بها وكسوره ما زالت لم تطب. لقد رق قلبه للصغير، رأى أن اصطياده إثم، ولكن الموت جوعا خطيئة أعظم من كل ذنب.

تنفذ أفكار ماسين، ويشتت صيامه الجبري كل سلاسة لها لا عجب أن الجوع عدو شديد التوغل داخل أجسادنا في مرحلة ما عندما يقربنا من الموت، فسيكون عدو مبين لا حيلة لنا به.

أما المعضلة الآن، فليست في قرقرة أمعائه، لقد كانت في كيفية افتكاك هذا الصغير من تلك الأم البشعة والضخمة! بأي شيء سيصطاد هذا الوغد الصغير يا ترى؟

وفجأة نظر للنار التي بين يديه، إحاطة النار بالفريسة فخ لا يملك غيره، وعلى الهوينى صنع مجمرة من النار غذاها بالأغصان والأخشاب والأوراق، وأحاط الفريسة بكل ما استطاعه من أغصان الأشجار أخشاب حشائش حتى أدارها بدائرة مستعدة للاشتعال، وسأل الحظ لجروه وألهبها اضطربت الفريسة وسط نار ماسين وتشتت غريزتها في الهرب غابتها كانت آمنة تخلو من يد الإنسان الصيادة حتى جاءها يومها على بغتة.

هاجس الخوف شردها فتركت صغيرها وهربت محترقة أما الصغير الذي خدش قلب ماسين، فقد اقتربت ناره من شويه وقبل موته أكمل بذبحه حتى سال كل دمه، بعد أن أطفأ النار بالتراب.

اغتبط غبطة شديدة، حمله مسرعا مهرولا يجري بكل قواه نحو الجرو.

وجده صريعا بين برزخ الموت والحياة، أشعل النار التي انطفأت، ثم بدأ يقسم اللحم ويشويه، يمضغه ويعطيه ليأكل في بادئ الأمر صحت غريزة الذئب، ولعق قليلا، ثم قليلا ثم اشتهى أكثر واستمر حنان ماسين ورحمته على ذئبه الصغير

امتلأ سعادة ونسي جوعه الذي اعتاد فالجرو تدب به الروح وانتهت في تلك الليلة حرب الجوع الأخيرة أخيرا.

الوهم

منذ أن فقد ماسين ذاكرته، نسي أحزانه وأفراحه الماضية هويته مقتولة ومدفونة، في مكان ما منه.. سعيه بات مشكوكا في نجاحه كي يصل لحقيقته، من أنا؟ سؤاله الذي يردده كل الوقت، دون كلل، ولكن الإجابة غائبة دون رجوع.

وأكمل حياته يتمشى في الغابة، يختار صغار الخنازير وطيور الحجل بنفس فخ النار الذي نجح به، تفنن بإشعالها بحجر الصوان وصناعة فخاخها، واستطاع تدبر أمره... لكن قلبه يذكره بالنبال وقوسه، يحس أنه قد يصطاد بسهم من سهامه أحد النجوم، فعزم على صنع قوس ونبال، تلك السكينة الصغيرة تستطيع قص الجلد وبرش الخشب، وعندما أكمل ذلك أحس أنه محترف في صنع سلاحه وبكل سهولة، فيده متمرنة محترفة، وتنبئه بأن عشق الرماية يسير بين دمائه.

بدأ جروه يكبر، كان ذئبه وونيسه دون اسم، حمله ماسين محتضنا إياه، مخاطبا عيونه التي تتحول من الزرقة إلى وميض أصفر ناري:

"إنك شجاع أيها الجرو، أيها الذئب الصغير لقد دبرت السماء لي، لقاء معك يا صغيري، سأسميك مانو... الشجاع الذي قاوم الموت دون خوف، سأسميك مانو... مانو اسم خفيف وجميل فلا تناقشني في هذا."

جبال تيكجدة سلسلة جبلية، خلق فيها الجمال قبل أن تكون الأرض، قد ألبستها أشجار الأرز والبلوط، والصنوبر الحلبي والصنوبر الأسود خضارا سندسيا، تسكن أرضها قردة الماغو والزردي النادر المنقط والثعالب والذئاب... وسماءها النسور الملكية، وستستمتع في خلوتك معها بإبداع الإله الذي مزج بين نقاء الثلج والسماء وجعل من صوت الخرير فيها مفاتيحا موسيقية تخلق من مرور الماء على تلك الحجارة فنسجت سيمفونية الطبيعة ستسمعها وتراها كيف تستولي على انحدار مياهها الجبلية العذبة، إنها تكسر صمت الرهبة والوحدة التي قدرت عليها منذ خلقتها الأولى.

ومر شهر آخر كبر فيها الذئب مانو، ماسين اعتاد الصيد واتخذ من الغابة التي دب فيها الربيع مسارا وطريقا للعبور نحو وجهة مجهولة نحو الشمال، ما سر الشمال مع ماسين؟ هل هي غريزة البوصلة داخلنا؟ أو أن فقدنا.. لكل عبء من الذنوب والخطايا يجعلنا كالطيور المهاجرة مستقيمون على الفطرة؟ الخطايا.. الذنوب تشوه طرقنا نحو القدر... لربما نحن نحتاج للنسيان.. لنسيان يجتاحنا كطوفان نوح، كي نستعيد فطرتنا نسترجع فيها أرواحنا الأولى...

ثم... جاء ذلك اليوم، استيقظ ماسين بعد أن دهست أحلامه، أشكالا جزئية للذكريات، لعب به عقله الباطن ضميره النائم بين الذكريات والخطيئة، رأى في منامه، قوما غاضبون

وجوههم مشوهة.. يحملون سيوفا وسكاكين رأى نساء عاريات يردن اختطاف قلبه، كن بشعات أيضا أظافرهن طويلة شعورهن شائكة مفاتنهن كأنها مسكونة بالشر، نهض مفزوعا يكاد قلبه يتوقف وأنفاسه أيضا.

جلس وأخذ يفكر، هل هي ذكرياتي.. التي تتكشف إلي وتنوح داخلي؟ ما أبشعها من منامات!..

ثم نظر باحثا عن مانو، لم يكن بجانبه كعادته، ما فارقه يوما منذ التقاه، هل يقضي حاجته في مكان ما، نادى عليه فلا خبر يأتيه.

ثم وقف، اغتسل في نبع للماء كان قريبا منه، وضع بعض الأعشاب كي يغليها في كأسه الفضي كان قد جربها لأول مرة وانتظر لعله يرجع.

لكن السكون واصل سنته التي اعتادها، ماسين شعر بالقلق والوحدة والاغتراب، تمازجت مشاعره السيئة دفعة واحدة حمل أغراضه، وأكمل صياحه كالمجنون مناديا على ذئبه خليله في رحلة لا وطن فيها ولا وجهة، هل تخلى عنه مانو؟ هل تتخلى الأحباب عن بعضها دون وداع؟ دون سابق إنذار؟ تمزقنا وترحل؟ مانو... أين رحلت؟ سيضيع صديقك في غابة السكون المجنونة هذه.

وهو يصرخ، سمع صوتا غَيَّر تعابير وجهه، صوت الأجراس يملأ كل الغابة، لا اتجاه محدد يصدر منه، ابتدأ بصوت واحد

ثم بدى كأنهما جرسان ثم ثلاثة وأكثر فأكثر حتى ملأ السماء ثم ملأه هو.... كانت تزداد وتزداد، حتى كادت تصيبه بالصمم فهرع هاربا منها، دون أن يحس بالخوف، كان الألم فقط ما يحركه، يعطيه قوة في جسده المنهك والضعيف، يرسله نحو قدر ما، شيء غامض ينادي ماسين ليعلمه كيف يصادق الألم والوحدة والغربة والتخلي.

وعندما خارت قواه، توقفت الأجراس، وأظلم كل شيء كأنه يسدل ستارة سوداء داخل عقله، ليسقط مغشيا عليه.

ماسين... هل يعيش الوهم؟ هل هو داخل لعبة يمارسها عليه عقله المهشم؟ ذلك السقوط المميت، كان انتقاما من عفاريت وادي الجنية، هل يعقل هذا؟

جاء موعد استيقاظه، استفرغ تلك الأعشاب التي طبخها كفطور في ذلك الصباح، فشعر ببعض الراحة ابتسم وتنفس وتكلم يخاطب نفسه:

"لا... لم أجن، لا.. لا لا. إنها الأعشاب المهلوسة، فعلت فعلتها المجنونة داخلي، كأن هذا ما ينقصني..."

ثم تذكر ذئبه، قَسَمَ له هذا قلبه، وبدأ يبكي... يبكي فيحس بأوردة قلبه، بشرايينه الدقيقة تستفرغ ضغط وجعها، وجع مخفي في فؤاد ماسين، لا يذكر منه شيئا.

بكى ذئبه الذي تخلى عنه، دون وداع، ثم تمدد مستسلما للسماء، حتى رأى خيطا من الدخان، يتصاعد راحلا نحو

الأفق، لعل عين هذا الغريب الذي توقد نار هذه الدخان تراه استبشر ضاحكا... تكلم متأملا:

"هل يمكن أن تكون نارا موقدة لأحد من البشر؟ ولم لا تكون؟ لست الكائن البشري الوحيد على هذه الأرض."

وحمل نفسه واتجه نحو خيط الدخان، لكنه بقي يتأمل إيجاد ذئبه مانو، لن يتخلى عن البحث عنه أبدا، بل فكر أنه قد يجده هناك، مع صاحب هذا الخيط من الدخان لعل ذئبه ينتظره كما اعتاد صاحبه ماسين.

خطاه تسابقه، إلى حيث خيط الدخان ذاك، لعله يرى أحدا من البشر بعد شهور من العزلة، وصل إلى المكان الغابة الجبلية لم تنته بعد، أميال وأميال، تترفع مع الجبال على الأرض، تيكجدة السماوية العذبة، التي تدهش البحر وأنهار الفرات والنيل، وتقلب السماء على صفحات بحيراتها العذبة أصبحت ملاذ ماسين ابن البرق والرعد، البشري الشهواني المتخلخلة روحه بين غيبوبته ونسيانه، ها قد وجد رفيقا بشري، فهل هو وحيد وغريب مثله؟

موقد من الطين، مازال جمره مشتعلا، راعٍ للأغنام والماعز المنتشرة بالعشرات، لم يكن كوخا غابيا، كان قصرا صغيرا يحيطه الثراء، تحيطه بعض الحراس، الذين يلبسون زيا حربيا نوميديا..

فماذا يفعل هؤلاء الأغنياء في هذا القصر الوحيد؟ حيث العزلة التي كره ماسين منها هل هم من الأسياد؟ لا يألف الإنسان الوحدة ولا يطيقها، الثراء مع الوحدة أسوأ من الفقر مع البشر! انقبض قلبه وتوجس خيفة، لكن الفضول يسبق المعرفة ويفتح أبوابها.

رآه حارس من الحراس، فتوجه نحوه، وقد أمسك بغمد سيفه، بقي ماسين جامدا في مكانه، فكلمه الحارس بعدما تفحصه بعينيه، وأدرك أنه عابر سبيل، فلا سلاح ولا مؤونة لديه، وبعد محاورة قصيرة أخذه معه، اقترب الحارس من الباب الخشبي الكبير، المزين بمقابض فضية لها أشكال متموجة ومتناسقة، أمسك مقبض الباب ودق عليه... فتكلم صوت هرم، يأمره بالدخول.

زادت دقات قلب ماسين، فقد رأى في البيت عجوزا وامرأة ذات لباس ملكي، تغطي كل جسدها ووجهها بستار ثم تكلمت بصوت رهيف قائلة:

"لقد جاء ماسين يا ساليس، جاء من تنتظرينه لقد أتى يحمل ناره داخله أيتها العجوز... لربما قد تنشغلين به عني.."

دهش ماسين، من أين لهذه الغريبة المستترة أن تتوقع حضوره؟ ومن أين لها بهذا الاسم الذي أطلقته عليه؟ ولم يكن كلام هذه الثرية ما أدهشه فقط، بل الرهبة الموجودة في هذا المكان، كأنه مسكون بأشياء خفية يستطيع قلبك أن يحسها

فور الدخول، لربما اعتاد هذا النوميدي الوسيم على عفاريت وادي الجنية وألف تلك الوحدة والغربة، كان فؤاده ينبض بشدة بل يسمع نبضه بوضوح، ثم يهفت يهفت حتى يكاد يتوقف، ليعود لدقاته السريعة مرة أخرى.

فقد توازنه، لم يحتمل هذا الشعور المقلق، ابتسمت العجوز ساليس، والتي كانت مليئة بالجواهر، عيونها مرسومة بكحل شديد السواد... وبشكل مبالغ فيه، جلدها المجعد يوحي بأنها قاربت القرن وربما أكثر، ورغم لباسها المرصع بالأحجار الكريمة ودوائر الذهب الصغيرة، إلا أنها تشبه الساحرات أكثر من العجائز، وقفتها حركاتها صوتها الخشن، الذي لن تفرقه عن صوت رجل بح من الكلام إنها لا تريح.. ولا تبعث على أي طمأنينة تشرح الصدر.

همس لنفسه يلوم قدره يلوم خيط الدخان الذي قاده لعجوز تشبه الجني البشع، ويلوم حتى ذئبه مانو الذي غادر دون سابق إنذار وكأنه يسير من مغامرة سيئة لأخرى أسوأ منها يا لها من مجابهة غير عادلة! يقحمه نصيبه فيها في كل مرة وكأنه ينتقم منه ودون أسف أيضا... فأين أنت يا مانو؟ كنت تبعث في نفس ماسين سكينة الخليل والعضد ففقدها بفقدك واختفائك.

سارت تلك العجوز نحوه، كلما خطت خطوة إليه، إلا وسمع صوت خلاخيلها وأساورها الذهبية، اقتربت منه... ثم

زادت من اقترابها أكثر حتى كادت تلاصقه، ارتجف قلبه لكنه كان ساكنا كتمثال، شهوته المستعرة للأبد، أخمدتها هذه العجوز التي تشبه مخلوقة من بعد آخر، كلماتها.. حركاتها التي كانت تتلمس فيها ماسين بلمسات شيطانية تثير الخوف والريب... ثم تمعنت فيه، تفحصته وقد أخذت كل وقتها، لم تترك فيها شيئا من جسده لم تحطه بنظراتها الغريبة، ثم استدارت حوله، وضعت يدها على كتفه فحدثته نفسه أن يحرقها مثلما كان يحرق خنازيره البشعة.

حتى تكلمت تلك التي تبدو عليها معالم الثراء، المغطاة بوشاح يخفي كل ملامح وجهها:

"أرى أن ماسين تفوق بصبره على شعوذتك يا ساليس."

أطلت عليها تلك العجوز من خلف ظهر ماسين، وقد أصدرت أساورها حسا غاضبا:

"ليس صبره من قاوم تعاويذي يا تنارا الخائنة، ماسين تجري في دمائه دمائي... دماء ابنتي أيور لهذا فكل شعوذتي لن تؤثر عليه، كل سحر الدنيا لن يؤثر على حفيدي ماسين. لأن سحره يخفي كل قدراتنا، لم تعد لطلاسم ساليس أي قوة أبدا أمامه... ثم أنني رأيت ما رأيته... أنت تبصرين تاجه وملكه.. وعذابه وناره.."

ضحكت تنارا ضحكة مقتضبة، صوتها عذب رغم تهكمها من هذه العجوز الغريبة التي تدعي بكل ثقة أنها جدة ماسين وأم والدته أيور، وسارعت بالقول:

"ليس سحر ماسين من أنجاه من قوة طلاسمك أبدا يا ساليس، بل كان قدره، إنه طريقه الذي لن تستطيع حتى روحي البصارة أن تكشف عن غموضه، عن مصيره الذي أراه بوجهين، مرة ينير كالشمس، ومرة يظلم كالليل.. وإنني أبصر نهاية مصيري مع نور شمسه وظلام ليله."

تهكمت العجوز من تنارا هي الأخرى، وخطت خطوات قربها وقالت مستغربة:

"لا أصدقك أيتها الخائنة، بصيرتك أقوى من نور الشمس وأعمق من أي ظلام، نوميديا أقسمت أنك تعرفين حتى أسرار السماء، فهل سيغيب عنك مصير هذا الشهواني؟ إنني أرى ندوب روحه وغرقها من قريته آريس إلى هنا، لا بد أنك تكتمين أمره، إنك خائنة، خائنة على الدوام."

صمتت تنارا، ولم تجب تلك العجوز الغاضبة، كأنها باتت تمثالا جامدا لا حراك فيه، أما هو فقد كان يستمع دون القدرة على الكلام وكأن ماسين تاه للمرة المئة، في حكايات وأسماء غير معروفة، لم تحفز عقله الفاقد للذاكرة، عروض الخوف والاتهامات المتبادلة التي أمامه بل جعلته يحس بالغضب من

حياته التي لا يفهم كيف تضعه موضع المشاهد، كيف له أن يعرف هذه الشخصيات وهو لا يعرف حتى نفسه؟

اقترنت كلماته بالصمت، جلس فوق رخامة، بعد أن ارتخى جسده المنهك، عقله المشغول، وروحه التي تئن وحدها في غربة تسحقه.

ماسين، يصارع أحاسيس مضطربة ومقلقة وحزينة تلك الحلقة المفقودة، والتي تربط بين كل حلقات حياته ضاعت ولا يعرف كيف يجدها، كان يحتاج أن يفكر، أن يحسب أولوياته وحاجاته وما مقدار المهم والأهم، تلك المحادثة الصغيرة بين امرأة تتحجب وتتستر عن أهل بيتها وعن عجوز شمطاء تدعي قرابتها به، أدخلته لحالة من حب الاختلاء الذي اعتاده بعيدا عن كل هذه الغرابة البشرية وهذه الخصومات التي تزاحم حيرته من نفسه، فلا تفضي لأي حقيقة يصل إليها عن هويته المفقودة داخله، نظرت له العجوز ساليس، وقالت له ما يريده كأنها قرأت أفكاره:

"من هنا يا ابن أيور، تعال معي سأرافقك لمكان ترتاح فيه وغدا سأجيبك عن كل أسئلتك وستفهم كل شيء".

يرتاح! من؟ ماسين! كيف سيرتاح وهو محموم بنار شهوته منذ الولادة؟ كيف سيشفى من جحيمه المستعرة؟ التي ظاهرها جنة للعاشقين، وباطنها حرب تحرق خضارها وسندسها... وأين سينام؟ وكل غربة ووحدة تحتله احتلالا ضاقت نفسه، ومل

الحيرة التي ما بارحته يوما، تمنى أن يرتاح.. أن يتذكر.. أن يعرف نفسه دون أن يصفها ويشرحها له هؤلاء، والذين لا يعرفهم هم أيضا...

لم ينم، طال الليل.. أتعبه كل شيء يفهمه أو لا يفهمه ثم استيقظ من سريره الفاخر، من لحافه الحريري، وأطل من النافذة، كان الليل ينشر ظلامه والسكون، المشاعل التي تحيط كل هذا القصر الإغريقي الصغير، أحاطته بوهج النار، وكلما تحركت تحركت معها ظلال الجدران كأنها تتراقص بلهبها، حفلة راقصة تصنعها خيالات بين الظلمة والنور، غرق في كل شيء يراه، إلا في نفسه العقيمة التي لا تجيب عن أي شيء يطرحه لها، ثم رآها رأى تنارا ذاهبة نحو كرسي الرخام، تكسر جمود الليل والظلمة وجلست بهدوء يعاكس صخبه... لها هيبة قديسة... وإغراء فاتنة لا يقاوم... خاطب نفسه يغريها كي تتبعها، لربما فيها ما يسليه هذه الليلة، ما يبعد عنه أرقه وتفكيره الدائم، كأن ماسين يحن لماضيه الذي أحرقه داخل عقله فلا يبصر غير رماده ظهرت له تلك المغطاة، كأنها تناديه لكرسيها الرخامي هكذا خيل له مجونه ذلك، وراح يسوغ لنفسه، بجمله التي تزيد لناره الحطب، إنها أنثى وحيدة، في ليلة مقمرة، لا بد أنها تحلم كما يحلم وتريد كما يريد، وراحت أفكاره تتخيلها تعريها من كل ما يسترها، تتخيل وجهها القمري الموجود تحت غطائه الشفاف، زادت نشوته التي خذرت واقعه

عندما تخيلها عارية متناسقة تخلو من عيوب السمينات وقساوة عظم النحيفات، تعمق في لمسها تتبع كل منحنيات جسدها، وشمها كما يشم الورود.

واشتعل قلب ماسين المتقد أصلا، لم يدرك أن خطواته سبقت خيالاته العارية، فأصبح أمام تنارا التي تغطي كل نفسها فلا يرى منها شيئا.

كان وراءها فتكلمت دون أن تلتفت إليه، تلك البصارة تلك الغريبة العجيبة، المليئة بالغموض، التي لا تكف عن إحاطة نفسها بهالة لا مرئية، فتضيع دون أن تجد رجعة منها، طلبت منه الجلوس معها على الكرسي الرخامي فانصاع لطلبها وجلس.

تكلمت تسأله:

"كل تلك الصور التي تراها بخيالك الشهواني، أبصرتها مثلما رأيتها وكأنني نفسك... مسكين أنت يا ماسين أشفق على عذابك كما أشفق على نفسي من عذابي.. ولكنك في بلاء عظيم تسكنك الرغبات الشهوانية فتكاد تقتلك... لا أحد يشبه ما أنت فيه... لأن صبرك لن تتحمله الصخور..."

تملكته الحيرة، تجمد في مكانه، أثارته كلماتها فاحترق أخافته معرفتها فاستكان... فكيف لها أن تعرف بما يفكر؟ ودون أن يتكلم فأجابته ودون أن يسألها وكأنها سمعت مناجاته:

"لأنني أرى بقلبي وأسمع به، لأنني أعلم أن الأرواح سجينة داخل أجسادنا، أجسادنا هذه يا ماسين أبعاد لا قيمة لها أمام عظمة الروح.. أمام ما تستطيع أن تفعله وتراه وتدركه... نحن موتى هنا في هذه الحياة... لأننا نتعبد الأجساد ونتركها تعبث بأعماقنا.. نتركها ترى المادة وأشكالها ولا نبصر وإن كنا نرى ولا ننصت وإن كنا نسمع."

تكلم دون أن يشعر:

"هل أنت مشعوذة؟ أم بصارة؟"

أجابته:

"ربما لن تفهم الآن من هي تنارا، لن تدرك وأنت غارق في بلائك قيمة القدر والروح والإيمان والعطايا. سترمي كل ما سأقوله وراء تلك الصور التي تتخيلها، ستتغلب صورة جسدي العارية على حقيقتي دوما داخلك."

تكلم ماسين:

"أريد أن أرى وجهك، صوتك جميل، يحرك قلبي فكيف بوجهك يا تنارا..."

ابتسمت.. ووقفت عائدة إلى مضجعها، يتمعنها فتصيبه الرهبة منها، كل تلك الأغطية على جسدها تزيدها غموضا وتزيده فضولا وتوقا لها... وكل تلك الكلمات التي تتفوهها من الغيب وتقتلعها من نفس وأعماق ماسين، كأنها باتت هو واندمجت داخل ضلوعه تقرأ ما يقوله عقله وتمليه شهواته...

لقد تركت أثرا غريبا وصنعت شكلا آخر للنساء لم يعرفه ولم يره قبلا في إحداهن، ولكنه رغم هذا أعاد سؤاله عليها.

"هل يمكن أن أرى وجهك؟"

فأجابته:

"وجهي! وما الذي ستغيره ملامح وجهي لديك؟.. لا شيء ستخبرك به هذه الملامح.. بيد أن فضولك لن ترويه كلماتي هذه.. رغباتك أقوى من صبرك وصبري أقوى من رغباتي.. سأريك إياه.. وكم أخاف على نفسي وعليك.. أن يأتي ذلك اليوم الذي ستلمح فيه كل شيء، لينتهي أمري.. سأحجب عنك نفسي يا ماسين ما استطعت.... وليتني أستطيع ذلك... أما تقاسيم هذا الوجه الذي يثير فضولك ستشاهده... لكن ليس هنا، دعنا نذهب إلى غرفتك."

كل كلامها كان غامضا، وكأنها تعرفه منذ زمن، لم يرد التفقه في غموضها وعمقها كثيرا، كل الذي أراده رؤيتها.. كسر فضوله وربما شهوته.. لقد طمع فيها.. وكبر طمعه عندما دعته لغرفته، وقفا ليتجها لغرفة جافاه النوم فيها وحيدا، وها قد تؤنسه تنارا بهذه الليلة، كلماتها كانت غريبة، وفعلها متناقض الأفكار، مرة تتكلم عن الروح والقلب، ومرة تستدعيه لغرفة نومه ليرى وجهها لا شيء يربط بينهما سوى الجنون.

دخل غرفته، سبق وأن كانت مشاعل النار مشتعلة داخل أغماد من النحاس، النافذة الحجرية الكبيرة كان شباكها الخشبي مفتوح، لحافه الحريري على سريره الرخامي كان نصفه في الأرض والآخر على السرير، جلست وجلس جانبها صمت قليلا، لأول مرة لا يقفز فوق امرأة انتابه شعور غريب تخللته رهبة نحوها وسحبته داخلها فاستكانت مشاعره الشهوانية.. إن هذا الشهواني يدركه الصبر، يا لها من مفارقة تصيب ماسين! لتتكلم تنارا:

"ارفع الغطاء يا ماسين، ففي هذه الليلة، ستتغير وجهة سفينتك، من الشمال إلى الغرب، ارفع لتدرك شمس الليل التي ستنير غرفتك."

وامتدت يده نحو سترها، ليكشف عن وجه في وسط نور المشاعل النحاسية، فذهل.. عيون لم ير يوما كجمالها.. إنها لا تشبه أحد ولا تشبهها أي امرأة رآها في حياته، جميلة باهرة لولا تلك الندبة التي تتوسط خدها الأيسر، ولولا تلك النظرة الجامدة التي لا تنظرها إلا عيون كفيفة..

تبسمت وسط صمت كاد أن يدوم، حتى تكلمت:

"أنا عمياء، لا أرى عالمكم الملموس ولكنني أرى عالمكم المحسوس وأراك يا ماسين"

وجه تنارا يروي معركة ما، داخل قلب ماسين الشهواني باب فتحته عيناها، ظلام أنارته بسمتها، قبح زينته ندبتها إن قلبه

يتشقق، كما يتشقق الفخار المصطدم، روحه تستيقظ وتمد يدها إليها.

وجه تنارا لا يحمل الجمال الذي لا يشبه أي جمال فقط وجهها آية ملائكية تفك مس ماسين الشيطاني، ندبة وجهها لم تجعلها قبيحة، إنها تشبه خيط البرق في السماء الذي كان يأخذ لب ماسين... لأنه يغير الليل في لحظة لنهار عجيب، الذي يشقها ليكشف عن نورها، لطالما كان يراه في مناماته، فرآه الآن على وجهها، ندبتها تجعلها امرأة حاربت وحوربت... امرأة غريبة لها ألغاز لا يفكها كل عقل ماسين.

سألته وهو يحاول أن يكلم ملامحها، أن يفهمها:

"أتحب الاكتمال؟... الجسد في نظرك هو جنة مفصلة لكل ما تحب.. ولكن هذه الندبة ليست للإغراء يا ماسين.. ليست إلا كضوء البرق في السماء الذي تراه فيأخذ من حيرتك وقلبك.. رغم أنه قاتل عندما يصيبك ولكنه جميل ومنير من بعيد... عندما تراه فقط... فهل غيرت هذه الندبة القبيحة جمال تلك الصور العارية.. التي صورتها شهواتك عني؟"

سؤالها يجعله يتوتر.. فكم قلبه معلق باكتمال الجسد! لا يحب العيوب لا يريد أن يرى أي شيء يشوه صورته عن الأجساد العارية، ولكنه يذكره بشبه آخر لنفسه كان مفقودا ووجده مع كلماتها العميقة... هو أيضا مشوه في عمق سحيق من كينونته.. لقد نسي أنه يملك روحا في جوفه.. نسي أنه لم

يعد يميز بين الحب وافتتان الشهوات... الفرق.. أن ندبتها تستطيع أن تسترها أما ندوبه فهي عارية تفضح رجلا لم يعد يميز بين الأجساد، هذه الغريبة التي تسأل ماسين، والتي تخاطبه كلما تكلمت بمعانيها العميقة تستفز فضوله، فهو لا يعرف إن كانت بصارة أو شيطانة أم روح من الجنة هاربة للأرض.

تلك الندبة التي تسأل عنها تنارا، غيرت قلب ماسين لفتت نظره لامرأة وحيدة عقلها فريد وغريب، لشيء لا يمت بصلة لجسد المرأة وفقط، إنه شيء يصل عقلها بجسمها كالجذور.

شهوانية ماسين الأبدية، خفت واعتدل مزاجه، أحس بِسَكِينة وطمأنينة في قلبه، لهبه المشتعل تحول لجمر لشيء لم يختبره قبلا، إنها الهدنة داخل جوفه، والصراع... الصراع المحتدم منذ عشرين عاما غيروجهته لوجه تنارا وهَفُتَ ليرتاح... إنها غريبة... هي وهذه المشاعر الجديدة كلاهما غرباء لماسين.

طال صمته، هي كانت تظنه محرجا، وهو كان في فلسفة أفكاره ومشاعره، هذه الغريبة المبهمة، لم تشأ أن تعرف ما تخبرها به روحه، أرادت أن تسمع جوابه كامرأة من النساء.

لمس بأصابعه ندبتها، وتكلم أخيرا:

"هل أخبروك أننا لا نستطيع أن نتمعن في الشمس؟ جمالها ينيرنا يدفئنا، نظرة واحدة وخاطفة، تكفينا لنعرف للأبد أن

الشمس أجمل ما في السماء، تلك أنت يا تنارا ندبتك هذه وسط نور وجهك تخبرنا أنك أجمل ما رأته أعيننا."

تكلمت بعد أن وضعت كفها على قلبه وقالت:

"أين هي صورتي وأنا عارية في خيالك إذن؟ هل اختفت مع ندبتي ونور وجهي؟ "

أحس ماسين، بأن كفها الموضوعة على صدره، دخلت جوفه تلامس قلبه، وتمسك نبضاته المتسارعة لتلجمها كالفرس المتوحشة، لامسه وقع هذه الكلمات، إنه يختبر أمرا جديدا عليه، لقد فقد معها في هذه اللحظات شيئا كان قد اعتاده منذ الولادة، فقد تلك الشهوانية التي عهدها جزءا منه شيئا اتخذها كعضو من أعضائه فصعق... كأنه يضيع في سواد لا نور فيه فانتفض.

أمرها بالخروج، ثم خاطبها غاضبا:

"لا.. لا تخرجي أنت، أنا من يجب عليه الرحيل، هذا المكان يثير جنوني ويقلب عقلي رأسا على عقب."

تكلمت تنارا بصوت هادئ:

"عقلك فقط؟ لا أظن ذلك يا ماسين، ما زلت تخط الخطوة الأولى في شق روحك لقدرها، ما زلت لم ترشيئا أنت كالجنين... الذي تشكل فؤاده للتو... نعم... نعم يجب عليك الرحيل ويجب عليك ألا تعود هنا.. لأنك إذا عدت ستتحمل ولادة

جديدة، سينسلخ قلبك ستصرخ من شدة الوجع، كما سيصرخ قلبي معك فإياك أن ترجع."

ذهل... لامسته كلماتها فتقلب حاله، ساحرة معانيها ساحرة تتخلل روحه كالملح في الماء، تنهد ماسين شعر بعدم التوازن تعرق جبينه، وحمل نفسه وخرج لوجهة يقودها نجم الشمال.

من هي هذه المرأة؟ إنها تترك في أعماقه أثرا غير محدد يحس بكلماتها تتحرك داخله، تجرفُ من داخله كَمًّا من البقايا، من السواد، تكنسه ببراعة باحتراف... لقد كان يشتهيها كان يظن أنه يسقطها في وسامته، في رجولته المبالغ فيها، في فخه المعتاد الذي فطر كالعنكبوت في نسجه، إنها الآن من ضحية لمفترسة افترست ما بقي له منه، اختزلت صفاته المغرية، في بعض من كلماتها، لقاء صغير محى ماسين المشتعل كأنه كان رمادا.

عيون تنارا الكفيفة هي كل السر... اعتاد على نظرات تنازعه الشهوة ولا تغض أبصارها عنه، ولكن عيونها الجميلة وإن كانت دون حول منها، لا تعبأ به، لا تعيره ولا تعطيه ما اعتاده ومل منه، إنها تقف أمام جبروته ولا ترى من جبروت جاذبيته شيئا ورغما عنه، أصبحت في عقله الباطن كالمغناطيس، يجذبه بل وربما كان يسحقه.. مسكين ماسين، قدره الذي يبشرونه به يبدو قويا كالجبل مخيف ومقلق، هويته مجهولة قدره غامض ضاق به الحال، وأكمل طريقه جريا في الظلام، ينادي على ذئبه مانو.

طريق أخرى

يصعب نسيان أشيائنا التي نحبها، الإنسان كائن متعلق تخالف فطرته التخلي عن كل شيء، حتى الزهاد قد يتركون كل شيء في هذه الدنيا، إلا الحب... الحب بأطرافه الكثيرة بصيغه التي خلق بها الكون والكائنات والوجود، لا يمكننا التخلي عنه إنه بذرة تنبت في كل روح، في كل قلب خصب مليء بالحنان... حتى الشر نفسه، وإن اجتاحه الكره بأكمله، إلا أن هناك بذرة حب فيه، فالشيطان يحب الشر، والشر يحب الشر نفسه الحب قد يكون بذرة فاسدة، وبذرة صالحة، ولكن أصله في كل حقيقة للوجود.

لم يختبر ماسين الحب يوما، تعلق بأشيائه كالعادة، قبل أن يفقد ذاكرته، كانت كل خصوماته محورها شهوته المتقدة طوال الوقت، تعلق بالرغبة باسترداد نفسه من وصول لم يصل إليه، وعندما فقدها تعلق بالبحث عن هويته عن أسباب تلك الشهوة المجنونة التي لا تفارقه أبدا محور حياته كان التعلق، غير أن الحب لم يعرف لفؤاده الغافل طريق.

اشتاق لذئبه المفقود مانو، صاحبه الذي حضر كلاهما لموت الآخر، صاحبه الوحيد الذي آنسه وقت غربته ووحدته وحيرته.

كان يمشي، يتبع وجهته الشمالية لا يعرف إلى أين سيصل بها، غير أنه أصبح مشغولا بها. سلبته تنارا، نافست شهوته المتقدة بل سكنت داخلها احتلتها واحتلته.

تجاهل صورتها التي في رأسه مرة ثم مرات أخرى، كان كلما عزم على نزعها منه، زادت تشبثا بدواخله كلها، كأنه ينتزع الشوك من قلبه، فينبت مرة أخرى إنها وخزات مستمرة ومؤلمة.

هل هذا تعلق؟ تعلق آخر لماسين؟ ولكنه كان قد كلمها بعض الوقت فقط، رآها كغمضة عين فقط، تركها هاربا بنفسه من شعور متناقض، بل هارب منها... كان إحساسا جميلا في نفسه التي ألفت القبح والغريزة، والتي يبذرها دون إرادة، بقدر جماله، فقد كان شعورا محيرا ومخيفا.

ما به يصارع ويكابد كل هذا بداخله، هل يستحق أن يعيش خصومات قاتلة لروحه هكذا؟ ليس هناك وقت للعشق، لا يحتاج لمعضلة أخرى تفسد عليه حياته الفاسدة أصلا.

هل أنا جبان؟ خطرت على باله هذه الفكرة فجأة ونخزت قلبه واستفزته، ماسين المليء بالرجولة، الذي يتقد جسده القوي والطويل كأسطورة هرقل، بجاذبية لا مفر منها، إن قوته تنبئ الرائي أنه ليس ابن بشري، بل سقطت روحه من البرق والرعد، ونحتت جسده بالتفصيل، كأنها تنقي وتختار كل عضو من أعضائه وبعناية سماوية. أثبت ذلك شكله... ووقائعه حتى مشاكله، ولكنه هارب من مجرد شعور، من امرأة جميلة

كلماتها آسرة، معانيها غامضة والأدهى أنها متناقضة، تجمع الرغبة مع الروح، فهل يجتمع جنون الشهوة والجنس، بحب روحي وصادق؟

الحياة قصيرة جدا، عندما نقضيها في الهروب، ستكون قصيرة أكثر ومنهكة، عندما نقضيها ونحن نكتم ما نخافه سيكبر الخوف كلما كتمنا مخاوفنا مع مرور الوقت، الحب لا يعترف بالجبناء، إنه يستحق أن نناضل لأجله، أن نحارب كل شيء لنستحق لقب المحاربين، نستحقه بالفعل.

لقد حذرته تنارا من العودة، تنبأت له بالألم والوجع لكنه اعتاد الآلام ما عادت تفاجئه، إنها جزء منه ومن صبره طوال حياته.

توقف عن المسير، واستدار إلى حيث تنارا.

ما خطبك يا ماسين؟ تلك المرأة مجردة من العراء الذي تحبه... إنها غامضة لحد الخوف.. جميلة ومشوهة... صعب عليك أن تفهم حتى تراكيب جملة واحدة من معانيها... ما بالك؟ هل هي منازعات الرجولة أم الفضول؟

لقد عاد إليها مسرعا يريدها، إنها تسحبه نحوها سحبا دون ريب... لا هرب بعد هذه اللحظة، الموت موت سيأتينا لا محالة لكن الجبن اختيار، ولن يكون من اختيارات ماسين، بعد الآن.

لقد وصل للمكان الذي هرب منه، وجد تنارا على كرسيها الرخامي، وبجانبها صديقه العزيز مانو.

أحس به الذئب، جرى إليه يلعقه، فرماه ماسين دون رحمة، ساد الصمت إلا من صوت مانو كأنه العتب... فخرجت العجوز ساليس من بيتها، وقهقهت كالشيطانة كسرت بصوتها الخشن والرجولي مشهد الصمت واللقاء:

"لا عجب يا ماسين! لا عجب يا بني، فدماؤك التي تجري هي من دماء ساليس، دماء الأجداد القساة، دماء السحر والظلام."

صمت، وذهب نحو جروه مانو، حمله بين ذراعيه، لمسه بحنان متأسفا ندما... لقد كان مزاجيا وكأنه يصارع حربا خاسرة... وهمس في أذنه بشيء لم يسمعه أحد سواهما إنه يرد على تلك العجوز المسترجلة بما يخالف أمانيها واتجه صوب تنارا يريد أخذها معه.

جرها من يدها، متجها بها لوجهته نحو الشمال... لقد فعل شيئا لم يفعله قبلا أبدا... كلهن كن يتنافسن على وده ومحبته.. كان يقضي وطره ويرحل... فما باله الآن؟ يخطف امرأة لم يرها سوى لليلة!

جرت إليه العجوز ساليس، تحذره وتكلمه بغضب ثم استجداء، تريد أن تفهمه، أن مازيغ سيقتله شر قتلة، أن تنارا محضية لديه ولن يغفر لأحد أخذها منه.

لم يسمعها، لم يرد أن يفهم أي شيء من كلماتها وعندها جرى نحوه الحراس يودون استرجاع تنارا، لكنه قاومهم كأنهم بعض الأطفال، تلك القوة لم يختبرها ماسين أبدا قبل هذا

أباه ياغورطة كان فارسا بارعا ومغوارا، لولا أن كبلته العرافة أيور بسحرها وأولادها الإحدى عشر لوثت عقله بحب مقترن بالتعاويذ، لولا ذلك لكان قائدا في جيش قرطاج، كان طيلة حياته في قريته أريس، معلق بعلاقاته الجسدية، ومغامرات نسائية جرته للموت لولا هربه تلك الليلة، فجأة تصحو قوته الجسدية كفارس كمقاتل كمحارب يحارب لأجل ما يريد!

عرفت العجوز ساليس، أنه اختار موته دون شك فتراجعت تلعن تنارا وتصفها بالخائنة، كما اعتادت.

لكنه واصل طريقه مشيا، يمسك تنارا من يدها بقوة حتى كادت أصابعها تنكسر كالزجاج.

لم تتكلم.. لم تتوجع، صامتة دائما، قليلة الكلام، وإن تكلمت جرفته.

تنارا كفيفة، لكنها ترى ببصيرتها ما لا يراه المبصرون مليئة بالألغاز، كانت في نظره فريدة... نادرة جدا، قوية وضعيفة... إنها لا تشبه أي امرأة عرفها ماسين الشهواني.

لم يتبادلا الحديث، كلاهما صامت، ولكنهما سمعا صوت حصان في الطريق، اشرأبت نفسه، هل هم عائدون إليه؟ استعد للقتال باستماتة، ولكن القادم لم يكن سوى العجوز ساليس، أحضرت له فرسا وسيفا وأكياسا من المال والطعام وقوسه ونبله، وأخبرته أن يذهب لقرطاج عند سافيكاس طلبت منه أن يذهب إليه ويخبره أن ساليس هي من أرسلته

وسوف يدبر أمره، لأنه لا بد أن يخرج من نوميديا قبل أن يمسكه مازيغ.

لم يشكرها، كان يحس بجسده يقشعر كلما كلمته لكنه عاهدها أنه سيرد جميلها في أقرب وقت غير أنها نادته بالغبي والأحمق، والذي سيدمر نفسه وكل أهله، وأنه ابتدأ حربا غير متكافئة لن ينال منها سوى الرماد. أخبرته أنه حفيدها فلن تسامحها ابنتها لو تركته دون مساعدة.

ركب فرسه رفقة ذئبه وتنارا، وانطلق لوجهة العجوز ساليس، نحو قرطاج.

الطريق إلى قرطاج 650 قبل الميلاد.

أحاطته بكلتا يديها، كأنها تتشبث بروحها قبل الموت وضعت رأسها على كتفه المعراة، سمعت أنفاسه، تعمقت فسمعت قلبه، تعمقت أكثر، فرأت روحه تستدير نحوها تمد أجنحتها وتحتضنها حتى تعرقت.

تنارا، امرأة لها سرها، خرجت من النار إلى نار أكبر منها تتملكها روح شاردة ما وصلت يوما لوجهتها.

إنها ملحمة من الحزن، الذي شكلها فتحولت كالشرانق من شكل لشكل آخر. ومن موت لموت آخر.

ماسين، حربه الآن مع الرغبة قاتل، يا له من صبر! أحضانها التي تحيطه، مغروسة بين جلده وعروق الدم أنفاسها التي يحسها تستخرج منه نخاع الشوق لممارسة حامية لا تنتهي.

الصمت زائف بينهما، كلاهما يكلم الآخر بصمت، كلاهما يحمل عبئا بقدر الجبال، لو يعرف ماسين سر تنارا لمال الكون على قلبه فسحقه.

إنهما كالبركان وطوفان نوح... يجالدان عبئا لا يحتمل.

كلما مر الوقت، إلا وزادت قوة تشبثها به، أحس بها لأول مرة يتغلب شعور ماسين على شهوته يا للعجب! لأول مرة كان شعوره أكبر منها.

سألها:

"ألم تندمي؟"..... "لا... ولكنني سأندم قريبا."

ابتسم وأخبرها بأن أجوبتها دائما تتعلق بالمستقبل وعندها.. أحس بأنها تتمسك به تتشبث به أكثر، كأن هذا السؤال بالذات، تعرف إجابته دون ريب، كتمته أخبرته أنها تراه وليس هذا لأنها بصارة، بل لأنها تعرف عواقب ما تفعله.

فاستفسر..

"كيف عرفت أنني سأرجع إذن؟ فإن لم تكوني عرافة فماذا تكونين؟"

ابتسمت وأخبرته كما أخبرته قبلا.. أنها البصيرة، عندما تفتح الروح عيونها داخلنا سنستغني عن البصر، عن العيون التي نرى بها عالما ماديا مزيفا، إن كفافها يريها ينبئها بما يقدم عليه الإنسان، إنها هبة تولدت من الفقدان.

ماسين، هل هي الشهوة من جلبت له مغامرة أخرى؟ هل هي عادته؟ أم أنه شيء آخر يولد كبيرا... كبيرا جدا..

أحس بنوع من الغرابة، هناك اختلاف، شيء لا يشبه ماسين القديم، لا يتعلق الأمر بشهوته الجنسية هذه المرة لا ينتهي بالبحث عن إشباع جسدي لنزوة جارفة ومغامرة جلها كبرياء وتحدي... هل يمكن؟... هل يمكن أن يكون الحب.

تعبت الفرس من مسير يوم كامل، فنصب لليلته، أشعل النار بالصوان كعادته، افترش لحافا لتنام عليه تنارا العجوز

ساليس، أعدت لهم عدة لا بأس بها... تشبه تلك الصرة التي وجدها على ظهره عندما سقط في ذلك الوادي السحيق.

أما الذئب مانو فقد تعلم الذهاب والرجوع، دون قيد روحه المستئذبة حرة شاردة لكنها ترجع لمن تحب.

نصب للشوي، كان قد اصطاد في الطريق بقوسه ورمحه أرنبا. واستقرا في هذه الغابة المظلمة التي تحيط بها سيقان خشبية عملاقة، وتسكن سماءها النجوم.. فتستبدل الليل الأسود بنقاط من الضوء.

لم تكن الليلة مقمرة غاب القمر عن السماء، لكنه كان على وجه تنارا.

طعم الوحدة اختفى، السكينة أحاطته، قلوبنا تختار شخصا واحدا لتحبه للأبد، لنتذكره للأزل، تختاره دون سبب نعرفه، لكن القلوب تحتكر أسبابها لنفسها.

تمناها، لكنه لم يطلبها، ماسين الشهواني، تراجع عن الدخول لممارسة الحب كما اعتاد، جلس جانب النار لكنه بقي يتفرس في وجهها الجميل. ولأول مرة لم تحاول امرأة إغواءه.. لقد انزوت في مكان تستر نفسها منه... فزادت لهفته عليها في عينيه.. ربما سر حبه وتعلقه أنها لم تفعل ما يفعلن... ربما كانت وهي تهرب منه تسرق قلبه معها... عيونها الكفيفة كانت سر كل شيء.. سر انبهار ماسين بها.

إن عيونها تعكس بريق النار، صافية جدا، أشكال عروقها الرقيقة كانت تزين بياض عينيها، لقد قرنها بعروق البرق في السماء، التي تزين الليل كما تزين خيالاته بها.

شعرها كان بنيا، رأى ذلك بعد أن تسربت خصلة على جبينها المقمر.. وقد لمست خدودها والتي تمسحها حمرة كالخوخ الأحمر

أثداء تقف مغرورة، متحدية رغبته تحت قماش حريري أصابعها أقلام مستوية مصطفة للكتابة على فؤاده، ابتسم أحس بنشوته، إنها نشوة مختلفة لا تشبه أي سعادة أحس بها قبلا.

لم يكن هكذا، لم يتمعن يوما في أي وجه بهذه التفاصيل إنه يعيش شيئا جديدا. يراوغه يقلب عليه في فقدانه لهويته هوية جديدة، إنه بَعْثٌ لماسين آخر، من مجون إلى عشق. في لحظة خاطفة مثل البرق.

كلمته تنارا، التي استلقت على لحاف فوق التراب صوتها حزين هذه المرة غير واثق كما كان، كلمته قائلة:

"لقد وُلِدتَ بها... أقصد شهوتك الطاغية، ولكنني لم أولد بهذا الكفاف الأبدي، وليتني ولدت به لكنت رأيت العالم دون أن تلوثه أفعال القساة.. كلانا يعيش بما لا يريد يا ماسين، لكن كفافي غيرني، جعلني أرى ما لا ترون، أما أنت فشهوتك أفقدتك الرؤية جعلتك لا ترى ولا تبصر."

سمعها بكل جوارحه، حتى وإن كان كلامها له عبارة عن لوم، فقد كان يحب صوتها عندما تتكلم، يشبعه من العالم كله، يحب معانيها.. عمقها.. حتى حزنها، غموضها الذي يجعله غشاء رقيقا أمامها، لا يحسه إلا من سحرته كلماتها ثم رد عليها:

"هل هو عتاب ولوم؟"

أجابته:

"لا.. لم يكن عتابا ولا لوم، الذي قيل كان تصفية لحساب النفس المنقسمة لقسمين، كل نقيض لنصفه الآخر هو اكتمال واتحاد.

ما معيار التشابه بين البشر؟ كل حواسنا هي ذاتها. لكن عمق كل واحدة فينا لا يتشابه حتى داخلنا... وحتى مع غيرنا. أما التناقض، قد يكون في أحيان قليلة هو اكتمال بذاته."

كلمته مرة أخرى:

"هل ترغب بي بمثل تلك الليلة وكتلك الرغبة؟"

أجابها أنه يرغب بها أكثر من كل وقت عرفها فيه وأكثر بكثير.. بكثير.

ولكن ماسين بقدر صبره ورغبته فيها، بقدر ذلك، كانت هي تملك سرا يمنعها عنه، وسر آخر كانت قد تناسته مع أيام حياتها شيئا فشيئا..

هو... يخاف أن يحبها أكثر، أن تستولي عليه وتحتله. لهذا يجبن أمام الخوف مرة أخرى.

الحب مخيف.. مخيف جدا، مغامرة يخوضها المجانين الذين يحجون مرة واحدة، نحو أرض المستحيل، الذين لا يستطيعون إلى هذه السعادة والوجع سبيلا.

من ينكر أن الخوف من العشق أمر حكيم؟ إنه لا يليق بهذه الحياة التافهة كالباعوض، إنه أكبر من كل جبال ومحيطات وسماء هذه الأرض، إن حمله لا يختاره إلا من لم يعرف له قدر أوجاعه.

ولكنه يخترنا لحمله كما اختير ركاب سفينة نوح يخترنا الحب لأنه التصق بكلمات الله، عندما خلقت أرواحنا قبلنا عندما كنا بذورا كأعداد الكواكب والنجوم.

عمر ماسين عشرون عاما، وعمر تنارا لم تحدده شكلا ولا رقما، وفي منطق العمر والأرقام كلاهما في بعد لا يقترب في منطق العقل كلاهما لا يتناسبان، في منطق البشر كلاهما مجنون وسفيه، في منطق الحب كلاهما عاشقان.

لا أحد فيهما أخبر الآخر عن مشاعره، هما يعرفان ذلك دون كلام، ولكن...

الإنسان ضعيف أمام الصبر، الصبر أقوى وأعند، مقام شهوة ماسين المتقدة هي كجبل قمته حادة وطرقه عمودية

كالجدران، إنه دائم العطش... هذا الجبل، لا ترويه الأمطار ولا عواصفها.

لكن جمالها قد يرويه، وقد.... يجعله يرتاح من كل هذه الحرب التي تقتله، إنه أمر عظيم، شهوة بركانية وحب جارف وقلب من اللحم والدم... لا يستطيع لذلك صبرا.

تقدم نحوها نظر إليها، كانت عيناها الكفيفتان القاتلتين إنهما كالسهام ترمي عليه نبالها وتترك عليه الأثر العميق ارتجف قلبه.. أحس بزلزال يسري داخله، أحست به.. إن ناره المشتعلة لامست جسدها فكادت تحرقه أصابعه خلفت أثرا عليها، استرجعت أنفاسها المرتعبة داخل صدرها، إنه لا يفهم... هناك شيء تسره، شيء لو يعلمه ماسين سينبذها للأبد سيرميها دون رحمة.. ولكنها محرمة بشريعتها عليه.

هو أصبح كالطوفان.. إنه كالطبيعة الثائرة التي تحطم كل شيء أمامها ولا تعبأ بأي ضعيف، كل أنفاسه التي تسابقه عقله الذي غيبته شهوته، جعلته رجلا يبحث عن شبع يشفي نهمه منها... لا يعرف حدا ولا حدودا.

اقترب منها يريدها.. في لحظة تغلب فيها هوى نفسه عن بعثه الجديد، فأي منقذ من أحضان ماسين المجنون بها في هذه الساعة؟ لقد اضطربت.. أصابها خوف لا حد له هي... بعيدة رغباتها عن رغباته.. كما أنها تحمل سرا لا تريد لأحد أن يعرفه... فأي منقذ ينقذها من شيطان ماسين هذه الليلة؟ لو يعرف ما

تخفيه تنارا عنه فماذا سيفعل بها؟ لو أدرك علتها ومعضلتها التي تنغص عليها حبها وحياتها فكيف سيؤول مصيرها بين يديه؟

وفي لحظة انغماسه في لمساته الشهوانية، قررت أن تقتل نفسها قبل أن يفعل فعلته وقبل أن يعرف، مدت يدها لسكينه التي كانت بين يديه، وقد وضعها بين حزامه في ملهاته، وقطعت به شرايين يدها... انبثقت الدماء فأفاق.... أفاق من الحب الشهواني والجنة إلى الألم والجحيم.

نظر لها وقد عاد صوابه، ولكن بعد أن مزقت العروق كي تنتهي هذه الرحلة التي قررها ماسين.

أمسك معصمها بكلتا يديه وبات يصرخ كالمجنون.

لقد فضلت الموت على معرفته لسرها، أرادت أن تفنى كامرأة مكتملة الأنوثة جميلة في عينيه، قبل أن يرى سرها المأساوي فينبذها لتموت ألما.

ألم الفراق عذابه مضني، الشعور بأنك لا تعني للآخر شيئا.. لذاك الآخر الذي تعشقه سيميتك قبل الموت... سيمزق شرايين الفؤاد شريانا شريانا ودون أن تبرأ، إنها تعشقه... انتظرته منذ كانت طفلة، قبل أن يضربها مازيغ حتى فقدت نعمة بصرها رأت روحه وروحها في رؤياها تنغمس في جسد واحد، تشتعل كالنار وتخرج مرة أخرى بانفصال قاتل، في منامها عاهدها أن

روحه ستجدها... وستبحث عنها في أي زمان ومكان... في أي عمر وفي أي وجه.

هو لا يعرف عن ذلك شيئا ولكنه يحسه فيصيبه هذا بالاختلال والمزاجية، لكنها تدرك أنهما تلك الروح الواحدة والمنفصلة، قبل أن يخلق الزمن، أنهما من بذرة واحدة... انفصلت في هذه الدنيا الغريبة عن روحيهما... أما سرها سيقتل كل أمل بالعودة إن عرفه ماسين... لن تشفع لها مناماتها ولا حبها ولا أي شيء آخر.

لقد انتظرته أعواما طوال.. هونت عليها بعض الجرعات من الأمل... والتي كانت تبقيها على قيد الحياة، وعندما وجدته أرادت الموت والابتعاد لمقدار مسافات الكون عنه.. مفارقات العشق القاتلة.

كانت دماؤها تخرج من معصمها بين أصابعه، صدم لردة فعلها وجرده خوف فقدانها من الحلول، الآن هو يمزق ثيابها ليس رغبة بل رهبة عليها ولفرط خوفه... ثم ربط معصمها المقطوعة عروقه، جرحها لم يكن غائرا، تعافت من النزيف ومن الخوف، يد ماسين التي مزقت ثيابها عنها هي نفسها اليد التي ترتجف خوفا عليها، وتمسك جرحها.

وأخيرا اطمأنت فنامت كالطفلة وفي كل ثانية تمر يراقب أنفاسها بهستيرية، يضع يده مرة على أنفها يتحسس أنفاسها ثم على قلبها، يخاف فقدها كأنه أحس بروحه داخلها، حركته

كما تحرك العواصف أمواج البحار هددت غروره واقتسمت معه قلبه، بل... لربما أخذته ولأول مرة في حياته ترفضه امرأة تختار النزيف حد الموت بدل ليلة واحدة معه.

لم يؤلمه هذا فقط... رغم غروره وسطحيته إلا أنها فتحت أمامه نافذة على عالم مختلف.. من تقاوم ماسين؟ لم يهمه أن السبب ربما كفافها.. لأنها لا ترى جسد ماسين وجماله كما يرونه، إنها تتفوق على الجميع وحتى على نفسه... تسمع دواخله وأفكاره وتحس بألمه ووجعه وتصفه بدقة متناهية له كأنها تتلبسه... لا... بل كأنها روحه التي نسى وجودها بين ماديته وعبثه، كل النساء يردنه إلا هي... صدمه ذلك فارتعب... لأنه رغب فيها أكثر... إنها تشده من قلبه وتستفز روحه التي سبتت ونامت منذ ولادته، إنها تلمسها فتدخله عالم تنارا، بريئا عميقا كوجهها الطفولي.

لا تشبههن... هن لا يشبهنها... لا صلة بين نساء كل هذه الأرض بحبيبته، وهذه النازفة التي تستر سرها بروحها.

تنارا ما تخفيه عن ماسين عظيم جدا، وستختار أن تمزق عروق جسدها قبل أن يعرف به.

هنا اختلف الأمر بينهما، عقل رجل يرى الوجود والكون والحياة علاقة جسدية محضة، وامرأة ترى كل ذلك بمنطق روحي لا صلة للبشر وغريزتهم فيه... فهل سيلتقي الماء والنار في قدر ما؟

نظر لها لقد كان نزيف دمائها غزيرا، لونها بات شاحبا تبدو مريضة وضعيفة، فأوجعه حالها وتألم، وكان الصباح أوجع حالا.

لم يغمض له جفن، كل الذي كان يفكر فيه، حياتها.. حياة تنارا التي قايضتها بالموت مقابل أن لا يلمسها، كبرياؤه المحطم بات مليئا بالكسور. ولم يعرف أن جنود مازيغ لحقوا بهما حاصروهما واستعدوا لتنفيذ خطة الشيطان.

تنبه الذئب مانو كما تنبهت تنارا، بعد أن أحسا وسمعا حوافر وصهيل خيل ذلك الطاغية، خفق في قلبها الخوف على ماسين، لأنها تعلم أن مازيغ لن يلمسها ولن يقتلها فلقد قتلها قبلا، ومنذ سنوات، تركها تعيش في عذابها... للمرة الألف كانت تهرب من رجل طاغية متجبر، مليء بالسواد، عذب كل مسامة في جسدها، وغير لها حياتها بموت شيطاني.

كم هو سقيم قلب تنارا! ما رأى أحد عذابها الذي تعيشه كل يوم، كانت تكتمه كان موجعا وأصبح أكثر وجعا، بعد أن وجدت روحها ماسين.

الأنفس البشرية قد تتشابه، إلا الأرواح فهي كبصمات الأصابع، لا تشبه واحدة الأخرى.

روح تنارا، مداها البشري فائق، لم تهبها طاقة الحياة فقط بل أصبحت محاورة لها، إنها ترحل معها لأكوان لا يدركها

المدركون، تفكر في الكون فتصنع لها طريقا نحو رؤيته، تضيع الأسرار جانبها، فلا يكشف أحد سترها ولا عمقها.

صامتة... عيناها كون يتصل بك فور رؤيتها، رغم كفافها إلا أنها مليئة بالرهبة.. صافية لا تجد لها شائبة.... وعميقة دون أن تكشف لنا حدودها، وذلك الغموض... ذلك الصوت... ذلك الخفاء الذي تخفي به جسدها... زادها فتنة... أما مازيغ فقد كان النقيض، روحه تشبه كائنات زاحفة في كل مرة تزحف فتترك سمومها أينما حلت، مقرف عقله يحتاج لغسله بملح البحر، طاغية مستبد، يتملك غصبا وعنوة أي شيء، ويفتنه ما ليس في يده.

لهذا تملكها، حاصرها أغراها لكنها لا تستطيع تنفس هواء كان يتنفسه، مازيغ الحالك السواد، الذي امتلك نصف أراضي نوميديا، وضم قبائلها تحت جناحه بالقوة وهزم كل من حاول مقاومته، لم يمتلك تنارا ولو لدقيقة من عمرها ولا عمره، كم جرته جرا لتحدي عنادها، فغمرها بالهدايا بالقصور بالثياب بالحياة الرغدة، لكنها لم تفتن يوما بعطاياه، وهل تفتتن هذه الأرواح الجميلة بالمادة... بتلك الأشياء التي تجعلنا في رفاهية من العيش؟ هل تأخذ قلبها وهي تملك ما لا يراه العابرون في هذه الأرض؟ إنها زاهدة لا تأخذ قلبها.. لهذا فهو ناقم عليها، في كل ليلة كان يأخذها منها، تأخذ هي منه غروره، وترميه كأشياء مقرفة هاجه هذا الأمر حطم كبرياءه، وأحس أنها لا تخاف من

طغيانه، أنه صغير.. قزم على روحها الكونية، فثار ماردة الشرير، وصور له انتقاما يقتل تنارا كل يوم، يرميها في عمق لقبر مظلم، سلبها كل سعادتها، لقد ثأر منها ومنحها سرا جعلها تعيسة طوال حياتها، وميتة دون قبر.

سنينا طويلة يستعبدها فتزداد روحها حرية وأنفة وعندما استسلم وعرف أنها لن تكون عبدة له، قتلها في أنوثتها، وسلمها للحزن في كل لحظة من حياتها....

وكم هربت من نفوذه، وكان هو يتبعها أينما ذهبت يلاحقها كظلها، ويعاود سحبها لحدود أرضه، ويستمتع بوحدتها وألمها.

لم يعرف ماسين قصة تنارا، ولا سرها الذي تخفيه عليه كل ما أدركه، أنها ترفضه حد الموت، فاستنفرت كبرياءه الموجوعة كل غروره هو أيضا.... يقيس رجولته برضوخها له كلما فكر فيها.

أما هي فإنها تعيش حالة واحدة لرجل تحبه وآخر تكرهه كلاهما ترفضهما إما كرها وإما حبا، وكلاهما يحبانها بطريقة مختلفة.

مازيغ تبعها، يريد استرجاع ملكيته النادرة، تلك المرأة التي لن يمسكها ولو أمسكها، ولن يستعبدها وإن استعبدها، لا يتخيل أن تكون لغيره، وأن تحب فؤاد أحدهم وهو من كان عاجزا عن كسب ودها وحبها لسنين دون أن يستسلم يوما.

لقد خطفها في عمر كانت فيه أقرب للنضوج، فاستولت على قلبه العقيم، كان يخاطبها ويظن أنها مثلهن، ولكنها خاطبته كأنها ملكة، جردته منذ لقائها الأول به، من غروره وكبريائه وظلمه، فأصبح أجوفا وفارغا، جسدا دون عقل. جن بعالمها الذي أخذته إليه، صبورة وحكيمة، طلب ودها لسنين وفي يوم شق عليه امتناعها عنه فحمل عصا خشبية وراح يضربها على رأسها حتى غابت عن الوعي، ثم فقدت بصرها دون رجعة عذبها مازيغ دون رحمة لأنها رفضته وبقي وراء أوجاعها ودون رأفة منه عليها.

لقد أحاط مكانها بالجنود والمرتزقة القساة، كاد يسمع دقات قلبها وهو يتخيل صدرها الذي تتنافس الأنفاس فيه للخروج.. كان يخاطب نفسه، وهو ينتظر مرتزقته لجلبها له:

"لن تذهبي لأي مكان غير أرض مازيغ، لن يتخط حدودك أي أحد ولا حتى أنا، ستعيشين كوحمة سوداء، على قلبي يا تنارا عهد علي لن أخونه أبدا ما حييت."

وبدأت معركة بين نبال ماسين وذئبه، وبين سيوف مصقولة بالنار والماء والمطارق، صرف عليها مازيغ أموالا طائلة ليصنع أسلحة ترهب عدوه، كلاهما معركة غير متكافئة، وحب غير متجانس، ورغم هذا فنبال ماسين تطير واحدة وراء الأخرى تخترق قلوبهم وما بين الضلع والضلع لم تترك في معركتها، شيئا حي.

ابن آريس الشهواني، وابن أيور العرافة، الذي كان زير نساء هو قناص يقتنص بالسهام، ولا يمنح عدوه لحظة لرد ثأره فكيف تعلم ذلك؟ كيف تدرب على القنص، وقد كان مشغولا بفحولته طول الوقت؟

هل تكون الفطرة؟ وأي فطرة! لا يولد الإنسان بطلا، بل يتدرب ليكون كذلك! لقد علمه والده الذي كان يحلم بمكانة في قرطاج، وبمنصب لبطل عظيم، أثناء طفولته اقتناص النجوم، دربه لكي يرمي بقوة وبشدة نحو السماء كان يخبره أن النجوم ما هي إلا ثقوب تركتها سهام الآلهة عندما كانت تتقاتل على الأرض، وأنه إن لم يثقب السماء فسيتبرأ منه...

ياغورطة المجنون بالحرب، الذي يحلم باحتلال قرطاج بنباله، علمه القنص، فبرع في اقتناص القلوب والنجوم.

انتصر.. طعم قتل أعدائه ومن يريدون قتله وأخذ حبيبته ضخ في جسده نشوة فضيعة. تهلل وجهه بالفرح والغبطة وذهب ليلحق بمازيغ، الذي هرب بجواده كالفأر لقد صنع له المال والظلم صورة ضخمة، لتفاهة متأصلة فيه وفي عقله المملوء باكتناز وامتلاك ما يسقط عليه نظره، كم كان له من ضحايا! ها قد جاء دوره ليكون ضحية.

عرف مازيغ، أن مرتزقته لن تستطيع ككل مرة استرجاع تنارا، فاستدار منهزما تصرعه الهزيمة وتشعره بعار لم يحسه قبلا.

رمى ماسين جواد مازيغ بأحد نباله، فسقط على الأرض التي تجبر عليها، منهزما خائفا، تلعب به صور موته بين يدي غريمه.

نظر لماسين نظرة عجز وجبن، فاقتاده نحو تنارا، لتشهد أنه رجل استطاع أن يحميها من مئة رجل.

تسرب له الفخر بنفسه، فجاءها بمن ملأ حياتها بالعذاب ووضعه أمامها.

لم يدرك ماسين أن عذابه هو من ابتدأ، كانت عزيزته في مكانها مع ذئبه مانو، بينها وبين نفسها، ورغم حكمتها تملكتها فرحة عظيمة، إنها تتحرر من وحش كبلها بقيود ثقيلة، وحمَّلها بؤسا لا يستطيع غيرها الشعور به، لقد كانت وحدها من تحس بمقدار وجعه.

روحها الرقيقة أرغمت على العيش في مكان لا تتنفس فيه كان كل من يراها يحسدها على قصور وخدم وأموال ورجل قلبه مثل المسخ، مليء بالسواد الحالك.

هؤلاء البشر يفسرون السعادة بالأموال والأنعام، كل شيء يرونه مادة، يظنونها أنها هي الحياة، بينما الروح تعشق روحا تستسيغ البقاء بجانبها، ترحل معها وتسافر وهي في مكانها لكواكب ونجوم وحتى عوالم وأكوان، وترى معها ما لا يبصرونه وتحس ما لا يحسونه، ولأجلها تحارب كل الأرض.

اقترب ماسين من تنارا، يحمل لها ثأرها، أخبرها أنها الوحيدة التي تستطيع أن تحكم على مازيغ، إنه مهرها وعربون حبه لها.

ضاعت هي في ماضيها السحيق، في سنين من العذاب تلك الكفيفة جعلها ترى شكل الحزن بكل تفاصيله، بالقيد بكل أشكاله، وحفر داخل قلبها بئرا من الألم.

وكان مازيغ خسيسا، عرف أنها لن تسامحه، ولن تتركه يرجع لظلمه وأن آخر أنفاسه، ستكون على يديها، فأراد أن يخبر ماسين سرها ومصدر وجعها:

"هل ستقتلني وتأخذها؟ هل ستتزوج هذه أم ستجعلها إحداهن؟ لا تضحكني أرجوك..."

فتكلمت تنارا تريد من ماسين أن يقتله، أحس أن هناك سرا تخفيه فصبر قليلا، ليكمل مازيغ كلامه:

"لن يحدث ذلك حتى لو مت، لن تستطيع أن تنام معك ولا معي ولا مع غيرك.."

كشر الذئب مانو على مازيغ، لكأنه أحس بجوارح تنارا كيف تتمزق، وهجم عليه قبل هجوم نبال ماسين.

هناك أسرار... مهما كنا زهاد في هذه الحياة... فإننا نريدها لأنفسنا فقط... نحتفظ بها داخل أعماقنا إلى أن نموت.. بل وحتى يموت كل البشر..

تقدم ماسين وسط قتال بين ذئب وفيْ، وإنسان خائن وغرز سهامه في قلب غريمه قبل أن يعرف سر حبيبته المشؤوم.

لقد مات مازيغ، مات رمز بؤسها الأبدي، فهل انتهى قهرها معه؟

هطل المطر، ليغسل دموعها وحسرتها، السماء تحس ببعض الأرواح، لأنها روح أيضا، هالة من الضباب، تتأثر بأوجاع أشباهها فتبكي لأجلهم، إن غيث السماء دموع تسقط على الأرض فتغسل خطايانا وذنوبنا وفسادنا عليها...

يا للهول! الثأر لا يشف الغليل! شيطانه ما زال معها كرفيق وصاحب سوء.

لكن ماسين اقترب منها، احتضنها بقوة، شعر بمساماتها بخلاياها، بحركة دمائها في العروق، وكم كانت ترتجف أنفاسها مختلة مضطربة، تعيش برزخا بين الخوف والطمأنينة، بين الفرح والحزن، وجهها الجميل الذي يخفي وجعها ابتل بالدموع والمطر. وكم كان هو يحبها تلك اللحظة! تلك المرأة التي اختطفها من قصر وجده وحيدا، من عجوز ساحرة تدعي أنها جدته، من شهوة، لتصبح أكثر من مجرد رغبة.

لماذا يراها مثيرة هكذا؟ لماذا هي مرغوبة تستنفر الكبرياء والتحدي وتسلخ قلب الرجل ليتغير، فلا يعرف حتى هو نفسه.

هل هذا بحق هو الحب؟

ابتعدا معا عن تلك الأرض، التي عرفت ملحمة لكلاهما ماسين الشهواني، الذي بات قناصا لا تخطئ نباله أبدا.

وتنارا، ذات السر الرهيب، والتي ثأر لها الرجل الذي أحبته من الرجل الذي كرهته.

كم تتضاد روح ماسين وتنارا! روح شهوانية مستئذبة وأخرى متصوفة حالمة، لكنه الحب.. إنه المخلوق الغريب الذي يختار أكثر المحبين غرابة واختلافا، ويصنع من رهانه عليهما قصة عشق، يبدأها هو، وينهيها العاشقون.

فوق الفرس، حملها.. كانت مسافرة معه، نحو قرطاج تعلم أنها ستضع حبها في كفة، وسعادة ماسين في كفة أخرى وستهرب منه دون رجعة، قبل أن يرى منها ما تخفيه عنه.

الفجر يلوح بحنان نوره، فيبشر الأرض بنهار جديد بعد ليل قديم، تنزل قدمها البيضاء من على الفرس، فتشهي ماسين أصابعها تصطف كما الجنود، وأظافرها الزجاجية اللامعة، يمر عليها شريط مضفور لحذائها، المصنوع من نبات الحلفاء اليابسة، إنه يتخيل أصابعها تزهر بقبلاته وتنبت من ذلك الشريط المضفور ثمار الزقوم، التي تظهر سوأة تنارا.. التي تكشف عن جسد حرمته منه، فزاد تعلقه به.

ليس بيده حيلة، لا يستطيع هذا الراغب فيها، أن لا يتخيلها تحت جسده، وبين أحضانه للأبد... إنه يمارس الملاحم بخياله وتشتد رغبته فيها، كلما مضى من الوقت لحظة.. وهنيهة.. وهي باردة كالجليد، ربما ليس لها قلب! تلك المتصوفة الروحية، لن تعطيه حتى يدها كي يلمسها، هو يريدها.. وهي تعذبه، لا بد أنها تدرك أن اجتماع الحب والرغبة في قلب الرجل، سيتحول لقاتل أو مقتول.

اختلط عليه الأمر، احتار في عقلها الغامض، الذي يصور له مرة امرأة عاشقة شهوانية ستمارس معه الحب في كل لحظة، ومرة راهبة... باردة... ستقتل نفسها قبل أن تلمس يده جسدها، هل تمتنع وهي الراغبة؟ أم أنها ذات قلب من حجر؟

تنارا كانت تفهمه، إن صمته كلام تسمعه بوضوح اشتعاله بنارها وصل ذروته، فخافت على نفسها منه، بل خافت على وقع سرها عليه، لأنها لن تطيق صبرا عظيما كهذا.

كسرت الصمت لتجرفه نحو الحديث، فسألته عن وجهتهما، إن كان سيذهبان إلى قرطاج، فخطر مازيغ قد اندثر بموته، وانتهت مخاوفها.

لكنه سألها بدل إجابتها، ووضع الغموض أمامها لتفكه:

"ألا ترغبين بي؟"

لم تتكلم، لم تحرك شفاهها الممتلئة، لتخبره حقيقتها.

جاهدت خوفها وتمسكت برباطة جأشها، وكان هو مجروح الكبرياء، يريد أن يكسر غرورها الذي تراءى له منها.

أوقف فرسه، فارتعبت... أنزلها فنزلت، ووضع كفها على قلبه، لتسمع دقاته كالطبول، إنه يمارس عليها الإغراء.. علها تشرب من كأسه... اقترب منها أكثر، سكنت إليه... رغم الحرب التي في قلبها فهي تريده وتحبه... وتذكرت مأساتها فتراجعت.. فزاد من اقترابه ليشعر بارتجافها.

إنه في ذروة رغبته، أما هي.. ففي ذروة خوفها ورعبها أصبح فؤادها معلقا بين السماء والأرض، تتمنى لو يتوقف نبضه لينهي حياتها البائسة.. كانت داخلها تتساءل بغضب لم يجب أن يلمسني كي يسوغ لذاته رجولته؟

أما ماسين فلن يحتمل أكثر، فصدره العاري، يلامس صدرها المستور بأقمشة ناعمة، لكن نبض قلبها القوي يحرك جلده وحتى ضلوعه، لمس ندبة وجهها الممتدة أسفل رقبتها بلطف، كانت تشعر بأنفاسه فضعفت للحظة، كم تتمناه وكم تحبه، إن مقاومة رغبته فيها كالرجم بالحجارة مؤلم.... موجع أكثر من الموت ذاته.

احتضنها بقوة حتى لامست شفاهه شفاهها، سألها عن مقدار حبها فانتفضت ثائرة، إنه انتفاض مأساوي يقتلع عشقها المصلوب بالمسامير... أخبرته أنها تكرهه.. تحتقره... لا تريده.. جاهدته كارهة، جهاد الرغبة... يا إلهي! إن هذه القوة... لا يمارسها إلا الأشداء... الصابرون.... الذين قد سبق لهم قهر شهواتهم وحرقها بالنار.

هل يصنفون من البشر؟ أم من الأنبياء والصديقين؟

لكن مقاومتها تزيده رغبة لا تحتمل، أصبحت أمواجا بقدر الجبال، زادت من مرضه الشهواني، لا يمكن أن لا يعرف قلب ماسين أنها لا تحبه، ولا ترغب به، إنه لا يعترف بهذا، فأرادها أن تغرم به حتى لو كانت تكرهه، وابتدأت هي بالموت، لأنه

سيعرف سرها، وهو مندفع يكسر برودها الجليدي بقبلاته المشتعلة... المحمومة في أوج صقيع خوفها.

كانت جامدة، وهو ابتدأ كي يمارس طقوس فُحُولَته حتى.... انتهك سر جسدها، فانكمشت كالجنين من الحزن كبرياؤها الذي تحداه مازيغ كي يكسره، طيلة سنين، كسره ماسين في لحظة جنون وحب ورغبة جامحة.

لقد انكشفت حروق جسمها التي سترتها عن عيون حبيبها وفضلت الموت قبل أن يلمح ذلك، جلدها المنكمش، أعضاؤها التي شوهها مازيغ الشيطان... حولتها الحروق لامرأة لا يمكن لها أن تكون مع أي رجل على وجه الأرض.

صدم!.... كيف استطاعت النجاة من عذاب كهذا؟ جسد مشوه بأكمله، حفر من الجلد تكاد تكشف عن أمعائها، لقد قطع لحمها.. وأحرقت دون رحمة، كم البشر قساة!... كم يبرعون ويتفننون بقتل الأنثى بوأدها لأنها تريد أن تختار.. كم حب بعض الناس غريب لا انتماء فيه لأي مشاعر! بل إنهم يمنعون الحق في الحياة... ماسين تشقق فؤاده لرؤيتها هكذا... تمنى لو أنه لم يعرفها أبدا... لقد انهارت كل أحلامه ورغبته واستحالت وصفا مليئا بالبؤس الآن ما الجدوى من الحب؟ مبادئ ماسين وتصوراته المادية قد نسفتها جروح وتشوهات تنارا، فكيف سيصبر على هذا؟ كيف سيلغي معتقداته في هذه اللحظة الفاصلة؟ كل ذلك الجدال في نفسه قد أحست به

وقرأته، عندما توقف عن جنونه بها، شعرت بقلبها يحترق... تمنت لو أنها ماتت قبل هذا وكانت مجرد غبار... إن روحها البديعة تصرخ وحدها حتى انتثرت في دموع لم تذرفها كبرياءً...

لم تتكلم.. لم تبك.... كل انكسارها عنفوان، حاولت أن تجمع نفسها وتضع عليها ما يسترها.

فأدرك ماسين كل شيء، راجع كل الصور منذ التقاها أول مرة، فتضاربت مشاعره، بين الألم على تنارا والشفقة عليها.

أراد أن يساعدها كي تلبس ثيابها، فأمرته ألا يفعل.

ما أبشع أن يتحول الحب الجارف، والرغبة القاتلة والافتتان لشفقة!

داخلها صدع رهيب، يشعرها بالعجز، لقد دمرها ماسين حملها لأعلى السماء، وأسقطها أسفل الجحيم شعور بائس ومؤلم لدرجة قاتلة، كل عذاب جسدها على يد مازيغ الوحش طيلة سنوات، لا يمكن أن يكون بقدر هذا الوجع في قلبها الآن.

كل البشر لا يعنون لنا شيئا عندما لا نكن لهم الحب إلا الأحباء... فإننا نتخطى أشياء كثيرة لأجلهم، لكي نكسب قلوبهم لكي يبادلوننا تلك المشاعر بأكثر منها، ويال أخطائنا عندما نعلق كل سعادتنا عليهم، سنراهن على جرح قلوبنا بحرقها دون ريب.

أما الكبرياء... ستسلخ أرواحنا من أفئدتنا لو مسها من نحب بضر.

لم يستطع كلاهما إكمال المسير، عبء من المشاعر خانق يذبحهما... زحمة عظيمة للقلق.. الألم... الطعن في أنوثة تنارا وَشَمَها وكوى أكثر ما تعتز به المرأة... كانت ترى الرغبة فيها أصبحت قرفا في عين ماسين.

تماسكت كالجبل، رغم خوائها وفراغ يسحبها نحو هوة سوداء، طلبت منه أن يمكثا هنا، لأنها لا تحس برغبة في الرحيل، أما ماسين فقد سترخيبته بالصيد وجلب عشاء تلك الليلة رفقة ذئبه مانو.

كانت تربة الغابة، رطبة من أثر الغيث الغزير، فتركت بعض الأرانب آثارها نحو جحورها، تتبعها ماسين فاصطاد ما يكفي ليومين أو أكثر... أطال في ذلك، أراد أن يترك مساحة بينهما يستعيد كل واحد فيهما أنفاسه، كان المنظر مروعا ومؤلما..

الصيد مجرد غطاء، لوقائع بائسة وجارحة، وعاد مهموما مشفقا على حبيبته، يتخيل كم العذاب الذي أذاقها ذلك الوحش البشري.

ولكنه لم يجد لها أثرا، جواده وتنارا كلاهما تبخرا في جوف الليل الأسود.

هربت منه لبقعة لن يجدها فيها أبدا، لن تطيق هذه الرفقة، التي حملتها محبة وستكملها شفقة عليها، وكان هو جبانا، كأن حملا ثقيلا انزاح عنه، ماسين الشهواني، لن يرى إلا الجسد محركا لقلبه، لا يزال في بعد المادة التي تنحدر

بالإنسان لقاع الغرائز، وتزحف معه نحو شيخوخة القلب وفناء الروح.

جرح تنارا الشامخة، يقظ لا ينام، نازف لا يبرأ، ولا يسكن قلبها إلا بمداواة نفسها كما تعودت.

عند السقوط في قبر الألم، لن تحييك إلا روحك، ولن تستلك من الظلام إلا رغبتك في النور، لا فرار من أوجاعنا إلا بحضور رغباتنا في الوقوف... إلا بمواجهتها ندا للند.

وضع تلك الأرانب أمامه، كان صيدها عبثا، حتى الذئب مانو رفض الطعام، وانزوى بنفسه على غير العادة تحت شجرة الصنوبر، أين كانت تنارا، حام حول المكان وعوى عواء حزينا ونام هناك يحن إلى روح صديقته.

جفاه النوم، صور جسدها بشعة جدا، لقد شوهت دون رحمة، فما أصبرها على عذابها الذي لا ينقضي!

لم يفكر بها ذلك المادي الشهواني، كل الذي رآه جسدها لم ير يوما روحها العذبة التي تحيط بها حتى في تشوهاتها، لكن أكثر الناس هي تلك الأفئدة المادية، فتجدها خالية من العاطفة وضليعة في الأذى، شرهة للفساد مشوهة روحها وحالكة الظلام، فالكثير منهم.. لا يعرف روحه من جسده.

وأراد ماسين نسيانها، كأنه لم يعرفها، وربما أرادها هباء.

بذاكرة مفقودة، بقلب فارغ كبئر دون ماء، بجسد شهواني يسافر في رحلة لم يخطط لها، كان يظن أنه سيرحل نحو قرطاج

رفقة تنارا، لكنه راحل وحده، وصورها تنازعه طول الطريق. آثار جواده الذي رحلت به، رآه فعاكس سبيله، صرخ أنه يرفض هذا القدر، وكان لا يعلم أن القدر له كلمته.

تناسى وسارع بخطواته نحو قرطاج، عله يستقر هناك ويكون حياة جديدة، يريد أن ينساها وللأبد.... ليت تلك الصور البشعة تختفي.. تنتهي إنه يشمئز منها.

وها قد وصل... فوق هضبة تراءى له بنيان قرطاج يظهر واقفا كمدينة من كون آخر، من بعيد يظهر شموخها رهيبة تلك الحضارة، الجمال يسكن أسوارها جدرانها الحجرية الضخمة، بيوتها قصورها، تنتصب كالمدن الإغريقية تحمل داخلها قلوب تعشق الحرب...

القناص الشهواني... الذي كان يسكن قرية آريس، زير النساء هذا، ما زال كذلك، وهو يتخيل القرطاجيات يمارسن الجنون الجسدي معه، لن يقاومن جسما أسطوريا كهرقل تكلم لتلك الحجارة العملاقة التي استأثرت بحماسته، سأتخذ العشيقات لأنسى صورها الملعونة، ليتني ما عرفتها، ليتها لم تكن كذلك.

إن الأجساد العارية، لا تبرد ناره، هو لا يذكر من ماضيه شيئا، حاضره ابتدأ مع امرأة واحدة، شعر معها ببعض روحه التي حجبتها شهواته وغرائزه.

لا يعلم أن حياته، لم تكن كالأجساد المثالية التي يحبها لقد كانت مشوهة أيضا، معذبة مترامية الأطراف لا يصل معها إلا لحقيقة هي السراب بذاته.

تزاحمه المادة، تسيطر على عقله، فتفتك به تجعله ضحية لما يظنه صحيحا ومنطقيا.

ودخل قرطاج ذئبه مانو يتمشى معه داخل السوق التجار يرمقونه بنظرات مستغربة يبدو غريبا عن هذه الأرض، الناس أيضا والنساء لا يتسترن بنظراتهن عنه ماسين مفتول العضلات، الذي يمتلك صدرا عاريا.. كدروع الحرب، يبدو كمنحوتة لبطل عظيم، جلس مرهقا مأخوذا بجمال الطرقات وهندسة المباني، ينظر للنساء المبتسمات له، كأنهن حوريات في جنة أرضية.

كانت إحداهن تضع ضفائرها كتاج على رأسها، ملامحها ليست فاتنة لم تفتن ماسين الشهواني، ولكنها تمتلك نظرة غريبة، مملوءة بالثقة والقوة والغرور وقسوة القلب، تمعن فيها جيدا وهي تكلم الخادمات في ساحة منزلها الكبير.

بقي يفكر... أنها لا تشبه تنارا، فكل النساء العابرات، لا يحملن أي شبه بها، وجهها الفريد... وجهها الساحر... بدأ يشتاق له.. روحها الصوفية.. كلماتها.. تلك الكلمات التي تحيي مشاعره الميتة يشتاقها.. ثم لام نفسه، كيف يفكر فيها! ولماذا يقارنها بهن... لماذا؟

لم يدرك أنه مع كل ذلك الحوار الخفي، كان يركز بنظره نحو تلك القرطاجية، لكنه ورغما عنه كان يسرح في ملكوت تنارا ويعاتب نفسه، حتى سمع صوتا يكسر غربة تفكيره:

"لا تركز فيها، ستقتلك... إنها لا تخش القتل ولا القتال."

ابتسم ماسين ابتسامة صفراء، وصمت قليلا، وسأل هذا الناصح الغريب:

"هل أجد عندك بعض الطعام؟"

رد عليه بالإشارة لمنزل بعيد، وأخبره أن يذهب هناك وينتظره.

ذهب ماسين نحو تلك الطريق، يتضور جوعا وتعبا يتبعه مانو بقلق، فهو فيما يبدو يكره كثرة البشر والمدن والحضارة فأحس صاحبه بقلقه، فحمله بين ذراعيه.

وصل لكوخ سقفه من النباتات والطين، جلس على صخرة صغيرة، منتظرا مجيء ذلك الشاب.

لم يمض من الوقت الكثير، حتى جلب له من الفاكهة واللحم المشوي وخبز الحنطة، ما يشبع به جوعه، كان يأكل والشاب ينظر في كل الاتجاهات في ريبة.

حتى سأله ماسين بعد شبعه، لم قد يفعل ذلك، فأجابه أن الطعام مسروق من مطبخ أسياده، وإن عرفوا بذلك لن يتوانوا عن قطع رأسه.

إن هذا فعلا غريب! تعجب ماسين لفعلته، وسأله في حيرة كيف له أن يعرض حياته للخطر من أجل عابر سبيل وأحد لا يعرفه ولا يمت له بأي صلة كانت! فأجابه بشيء يشفي غليله وجعله خليلا لهذا العبد إلى الأبد:

"ولكنني أعرف الجوع، وأعرف البرد والغربة.. أعرف ألم المعدة من الخواء، هذا يكفيني لأعرفك أيضا، ولا تقلق الموت عندما يأتي فلن يغير موعده، هي موتة واحدة لا رجعة بعدها."

كلوديوس هذا العبد الروماني، المليئ جسده بآثار الحروق والجراح الدامغة في الجلد، وأخرى تبدو قديمة عهد طفولته جسد قوي لرجل قضى كل حياته يقاضي ويحاجج السيوف وربما الحق والظلم.

كل جراحه التي تتكلم عن حروبه ومعاركه، لم تجعله قاسيا، كان رؤوفا ورحيما، وسخيا لأبعد الحدود، مع عابر سبيل، طلب منه بعض الطعام، قد تكون الطريقة خاطئة لكن السرقة لإطعام الجياع في زمن الظلم والقهر، دليل على تمرد عظيم سيأتي قريبا.

بدأت قرطاج تلد رجالاتها وتوسع أرضها، قبل أكثر من ثمانمائة سنة قبل ميلاد المسيح، كانت الأم الأولى أليسار من سلالة الملوك، فينيقية شربت من علقم السلطة وعسل الكراسي وهربت من أخيها قاطعة البحر لترسو على قرن أفريقيا الشمالية.

ما زالت فتية هذه الحضارة، لكنها تتطلع لاقتلاع كل مملكة تنافسها من الجذور، تحلم بذلك وتسعى إليه.

عمر الحضارة الآن زهاء المئة عام، ما زالت تحبو وتتعلم النطق لتحكي تاريخها، أسست قرطاج جيشا من المرتزقة والعبيد، وبدأت في تشييد القصور وبناء السفن.

لم تبسط بعدها كامل هيمنتها على الشمال والغرب وكان الطموح أكبر من قوتهم.

طموح ماسين، استشرى في قلبه وتملكه، قرطاج.. الإمبراطورية التي تحلم بقلب روما في السر، كان هو يحلم كل ليلة بنباله تصطاد نجوم السماء، تراوغ الليل لتزيد من ثقوبه النجمية، لكن الليلة، اتجه نحو الميناء، أخذه كلوديوس معه ليريه شجاعة حبيبته... حبيبته وحده الذي يعشقها ويكتم ذلك عن الجميع إلا عن ماسين صديقه الجديد، حبيبة كلوديوس إنها تلك المغرورة التي رآها عندما التقى بالروماني، تلبس لباس الفرسان، وتشرف على بناء سفن قرطاج الحربية.

ابتسم ماسين، إنه يعرف الآن مصدر تلك النظرة الواثقة والمغرورة، سأله صديقه عن سر ذلك، فأجابه أنها تشبه الرجال، لا معنى له أن يحب امرأة تخلو من الأنوثة إنها تشبه الحجارة القاسية وهل القسوة تلتقي مع الحب؟

كلوديوس يحب ذلك الغرور، قلبه يميل لامرأة عنيفة ومجنونة وقوية، يريد كسر ذلك الجمود بيديه ويروضها.

ولكنها مستحيلة، كيف ستحب أميرة عبدها؟ وكيف سيرضى ذلك الجبروت منها، بقلب خادم لها، لا يليق هذا في طبقة السادة والملوك.

حزن ماسين لقول صديقه، كان يراه كيف ينظر إليها.. وكيف يتمناها هذا العبد الروماني، ثم أراه شيئا يخفيه في كيس جلدي يعلقه، أراه قطعة قماشية رقيقة وشفافة سرقها من ثياب إينولا، عندما كانت تتحمم في أحد العيون الساخنة كان يمسكها بشوق كأنه يمسك خصرها ويستنشقه، فتتغير ملامح وجهه ليصبح كالمخمور.. وجهه ونشوته التي ذكرته بوجع لم يدركه، خفي داخل أعماقه شوق لتنارا يضيف مسحة من الحزن على حياته للأبد.

والد تلك المسترجلة، يعد من قادة الجيش القرطاجي إنه أخ الملك أجينور.. ملك قرطاج، لم يمتلك والد إينولا من الأبناء غير ابنته، الذي حولها جنونه بالقيادة لرجل في جسم امرأة أمها النبيلة الآتية من روما، لم تحتمل قسوة والدها ماغون وهربت عائدة نحو وطنها، تاركة له إينولا دون رجعة... هكذا كان يخبر ابنته دائما.. غير أن الحقيقة لا يمكن أن تعرف من أفواه الطغاة.

كانت السفن عظيمة تحمل أكثر من ثمانمائة جندي وأخرى أصغر ثم أصغر، كل أشجار غابات نوميديا من البلوط والصنوبر والفلين والأرز الآلاف والآلاف منها، تقطع وتؤخذ نحو قرطاج.

ماسين الشهواني، أخذته هذه السفن الحربية، فتخيل نفسه قناصا عليها، يحارب روما الجبارة، ويخطف نساءها نحو رغباته العاتية.

غنائم الجسد، هل تشبع الرغبة؟ لعلها تفعل ذلك في قلب ماسين المجنون بالشهوة.

وفي لحظة مفاجئة، خطر على قلبه خاطر يتعدى الحدود وحاول أن يصل لمبتغاه ومبتغى صديقه الجديد إنه القناص... القناص.... الذي يصطاد بنباله ما يريد، تكلم مخاطبا كلوديوس، الهائم في حب إينولا، ماذا لو أسقطها له في حبه حد الجنون؟ هل يعاهده عهدا لن يخونه أبدا؟... ولكن كلوديوس عاهده دون معرفة بنوده ولا خفاياه، كان حبه مستحيلا في نظره، ولن يصل له مهما فعل.

استل ماسين أحد نباله، فهاج كلوديوس خوفا..

"ما الذي ستفعله يا صاحبي؟ إنك تستل نبالك وتستعد لرميها.. نحو من أيها المجنون؟.."

تكلم بهدوء وهو يركز في مكان إينولا بعينه النصف مفتوحة:

"نحو حبيبتك التي تحبها.."

هاج كلوديوس وجن، أما ماسين فكان شديد الهدوء والتركيز، وفي خضم معاتبة العبد الروماني له، استدار نحوه يسأله أن يمزق قطعة من قماشة إينولا، رفض العاشق ذلك وخاطب صديقه مهتاجا، أنه لا يفهم شيئا مما سيفعله، لكنه رد عليه، إن كان يريد حب إينولا، فلا يسأل عن شيء يفعله... إنه الخبير بالحب وأسراره... إنه السقيم أيضا به.

فكر قليلا، وقطع جزء من القماشة الحمراء، كأنه يمزق قلبه، فربطها ماسين على سهمه، وأخذ وضعية الرمي وصديقه العاشق ينظر إليه بذهول، إما سيتسبب في موته أو في قصة عشقه.

وفي لحظة خاطفة بينما كانت إينولا تتمعن بلمسات يدها من ملمس السفينة، إذ بسهم خاطف كالبرق، يمر أمام عينيها يخلف تيارا من الهواء فيحرك بعض خصلات شعرها، ارتعبت.. جمد نبضها وكاد قلبها أن يتوقف... كادت أن تصرخ، ولكن هذا السهم يحمل رسالة لا موتا...

جزء من قماشتها التي ضاعت منها، عندما كانت تغتسل في العين السخنة.

قد أدركت وهي الفارسة، التي عاشت وتربت على يد والدها المتشرب بالحروب والمعارك، أن رامي السهم، تقصد إرسال رسالة لها، لو أراد أن يرديها لفعل ذلك دون بد.

صمتت، أخذت السهم، تمعنت فيه، لن يكون بأي حال من صناعة يد قرطاجية.... رغم تشابه كل السهام.. إلا أن نحته وصنعه كانت ليد تحمل بصمة لا تشبه غيرها... السهم غريب لقناص أغرب.

كان ماسين وصديقه كلوديوس يراقبانها، تلك المشاعل الليلية، تصنع جمالا للبحر المكتحل بظلام الليل، وتصنع ملحمة في قلب كلوديوس... وربما إينولا.

اختفيا في وسط الظلام، كلاهما تعودا على الحجب السوداء، كأنهما ظلال في هذا الليلك.

قلب كلوديوس ينبض كطبل، أحس أنه يستنشق كل هواء الأرض، يطير ويطير، يتصَّعد السماء نحو نجومها.

لأنه رأى نظرتها، لا يمكن أن يخطئ، ملامحها المستغربة المتفاجئة، التي اصطدمت بسهم يوشك أن يرسلها إلى موت أو عشق... كان يجري ويضحك، مصدوم في هذا النوميدي الذي لا يخشى من أي شيء.

"هل رأيت عيناها؟ تلك المسترجلة العزيزة ذابت كالثلج السهم... السهم الذي طار، طار معه قلبي يا صديقي المجنون."

كم هي عملاقة وعميقة مشاعر الفرحة بالعشق! يخلق الله الحب فينزله من السماء، هناك من يُسكنه فؤاده وهناك من يُسكنه ما بين رجليه، وهناك من يُسكنه الجحيم.... لو تدري القلوب... ولو تعرف، أن المشاعر أبواب الروح، والعيون

مفاتيحها، والقبل عناوينها، والصدق أثوابها فهل هناك من يعرفها؟

لم ينم الليل، يعيد صور السهم، صور خصلات شعرها المتطايرة، صور نظرتها التي تمتد نحو الظلام البعيد، نحو قلبه العاشق.

لم يلمه ماسين، كل كلماته عن إينولا، كان يتخيلها لتنارا فقد اشتاق لها... إنه يخاطب قلبه... فليتها كانت مكتملة كأجساد كل النساء، اللائي رأيتهن... ليتها كانت مثالية كأجساد الأريسيات.. ولكن جسدها كفوهات البركان... ملعون بلعنة شقية لا تعقل... من اختارها قلبه.. كانت غير مكتملة في نظره.

حذره ماسين، أن لا يتكلم عن الأمر لأي أحد، لأنه إن فعل فسيكشف عمله ولن تحبه أبدا..

وتتالت بعض الأيام، كان صديقه يسرق له الطعام، وهو جالس في ذلك الكوخ، ومل مللا عظيما، حتى مانو، اتجه صوب الغابة، كان يختفي ويرجع ليلا من رحلة البرية لصديقه العزيز.

راقب ماسين منزل السيد ماغون، والدها كان غائبا منذ حضر هو لقرطاج، وكانت إينولا، تتولى شؤون بناء السفن الحربية، لتشكيل أسطول حربي يقارع به ملك قرطاجة سفن روما.

فطلب ماسين، من صديقه العاشق أن يمزق قماشة أخرى ولكن ليكتب عليها بعض الغزل.

كلوديوس كان فارسا في جيش روما، ولكنه في عمر الخامسة عشر تمرد وخاض معركة لأجل أجره، الذي أنقصوه حقه دون وجه حق.

كان متعلما ومثقفا، ولكنه بجانب طيبة قلبه فقد كان لا يحتمل الظلم، ويتحول لصعلوك يتفوه بكل الكلمات النابية والمعيبة.

روما علمت جيشها الانضباط لا يمكن أن تتساهل مع من يحيد عن تعاليمها وقوانينها إنها تبني وبكل قوتها تلك الإمبراطورية العظيمة، وستحتاج فيها لجيش منظم كالنمل أما هو فقد كان فتى حالم وشاعري، تعلم الكتابة والقراءة دون هوادة، كتب الأشعار وأحبها كما أحب الحياة.... وكره الظلم ومقته.. فكان يفقد أعصابه ولا يحتكم بعدها لأي أحد.

بات تلك الليلة يخيط لها كلمة واحدة فقط، كتبها من أعماق قلبه.

رجعا لنفس المكان، ربط قماشة إينولا الحمراء وبنصف عين مفتوحة أرسل سهمه لتتخطى شاعريته صدرها وقلبها.

صمدت هذه المرة، ثبتت نظراتها، ذلك السهم المترنح يحمل جزء من قصة عشق ملتهبة سيشعلها ماسين، في قلب صديقه العبد وسيدته النبيلة التي هي من حفيدات عليسا.

أمسكت طرفها المكتوب بخيط صوفي أبيض، كلمة واحدة شقلبت استرجالها لأنوثة تتصارع لكي تستيقظ من أثر ماغون الطاغية.

"عيناك"..... كتابة من قلب روما، دق قلبها المشتاق لوالدتها التي حرمت منها، لنصفها الذي تعرف لغته كالأصل.

أصابها الحنين... وشيء آخر... لا يشبه الشعور بأي شيء قد أحست به قبلا.

الكل كان يخافها، متسلطة مغرورة ومسترجلة... حتى أن لها شنبا خفيفا، وأصابعا مثل أصابع الحداد.... فكيف لأحد أن يرى عيناها بهذا الجمال والجنون؟ لن يكون إلا عاشق لا يخش ماغون وابنته.. وربما لا يخش قرطاج ولا حتى روما بعظمتها... أو أنه قد يكون عابث من أولئك العباث بالقلوب، يريد أن يسخر ويتلاعب بما تبقى لها من المشاعر...

اهتزت أحاسيسها كالأرجوحة، واستلت السهم والقماشة تمعنت في هذه الكلمة التي خيطت بخيوط الصوف الأبيض كأن صاحبها يملك يد فنان، يدا تصيب بأناملها القلب دون جرحه، إنها كمثل سهمها اخترقت شغاف الفؤاد... نبضاتها اختلت... لم تجرؤ وربما لم تستطع أن تفسرها كل الأمر كان جديدا كجنة جديدة تراها... وخرجت خارج السفينة، تركب فرسها مسرعة لهدف واحد فقط.... كان لرؤية وجهها في المرآة... لتتأكد أن عيناها قد تثير بعض الجمال.. لقد أنساها ماغون

تقاسيمها، هويتها، روحها... إنها أخيرا تتذكر أنها... لربما تكون أنثى!

دخلت قصر والدها على عجل، لم تر يوما وجهها في المرآة كالصبايا، كانت مثل العجائز، لا رغبة لديها، أين هي تلك المرآة؟ التي سترِيها حقيقتها... هل تملك حقا عينان جميلتان؟ حتى تذكرت أنها لا تملك أي واحدة من المرايا غرفتها خالية من المساحيق من العطور من انعكاسات وجهها، كي تدرك محاسنها، نادت على خادمتها لأول مرة بخجل، لتحضر ما سيثبت لها، إن استطاع، شكها وظنها.

لأول مرة ستفعلها، ستعكس المرآة ملامحها... تفاصيلها حقيقتها... سترِيها وجهها الذي طمرته كأنوية الفواكه، أهذا من أثر السهم الأول...أم الثاني؟ أم من أثر الكلمة التي أيقظت أنوثتها كالربيع؟ عيناك... العيون لغة الحب الأولى.. منها تتسرب كل روحنا وأعماقنا نحو نقطة للبداية أو النهاية لأي شيء.. إنها العمق نحو الأفئدة... والعالم وحتى الكون.

أمسكت المرآة الصغيرة، وخادمتها لا تصدق هذا! غير أنها سوغت ذلك بجرح تود أن تراه، هذه المغرورة المسترجلة القوية، أصبحت تتصرف وتكذب كما يكذب الأطفال... كذبات حلوة ومكشوفة.

أغلقت باب غرفتها، وأخرجت السهم، تمعنت في صنعه هي يد تتقن الحرفة، غصن الشجرة أصبح على يديه سلاحا للحب

والحرب، لا يمكنها أن تخطئ ابنة ماغون الفارسة التي ورثت شجاعة وقسوة والدها المجنون بالحروب والسلطة، فاكتسحها وغير طباعها من امرأة لشبه رجل ملامحها تتوسط النساء والرجال فباتت تقاسيمها بشعة... ولكن اليد التي أخاطت تلك الكلمة، يد تحمل في قلبها الحب، السحر، الجنون.

يال قلب إينولا المفتون! رجل غامض يعرف حرفة النبال والشعر!

قرأتها... أعادت قراءتها مئة مرة، ونظرت لمرآتها، شاهدت في حدث نادر وجهها، صدمت!... حاجباها العريضان.. المتصلان ببعضهما كالرجل، شاربها الخفيف يجعلها كالمسخ، أنفها لا يشبه أنوف الجميلات... عيناها... ماذا يرى فيهما هذا الغريب! رأت نفسها كرجل قبيح في جسد امرأة وانهار كل شيء في قلبها لا يمكن أن تعجب أحدا، إلا العميان، فهل العميان يطلقون النبال في دقة مستحيلة!

احتارت... غضبت... وتألمت، ظنها لا ينبئها بخير، لقد رأت نفسها بوجه لن يحبه أي أحد.

تذكرت والدها ماغون، الذي رباها بقسوة، وانتزع منها كل جمال، لا يمكن أن تلومه، فقد رأته مثالا للقوة والعزة لقد علمها أن القسوة هي فرض للوجود ولو بالقوة... علمها أن اللين والرحمة، ستضعف هيبتها، وتجعلها مطمع العبيد والخدم... تراجعت وخبأت مشاعرها داخل الأعماق، عاتبت نفسها ثم

كسرت مرآة خادمتها وتمددت لتنام... فلم تستطع... إنها تتقلب كما يتقلب قلبها..

كلوديوس العبد الروماني، فتح له صديقه بوابة نحو الأمل ما كان يحلم بهذا، ما كان يتصوره.

أما ماسين، فإنه يرى هذا هينا، صناعة الحب وأفكاره كانت كشرب الماء لديه، لا يخش جنونه وعواقبه.

لكن طبعه الشهواني، يأسره ويغويه، فأين النساء؟ أين قبلاته وأحضانه التي اشتاقها وهو في عزلة كوخ صديقه كلوديوس.

يا للفراغ! عضوه ينتفض كالمريض، وإدمانه يجعله يصرخ كالمعذبين، لا شأن له في هذا الكوخ، طالما لا دواء لرغباته المغرية.

سأل صديقه، أين النساء! أين الوجوه الناعمة في قرطاج؟ إن كوخه بارد كجبال جرجرة غير أن تيكجدة نساؤها يتواجدن كالنجوم في السماء.

ضحك كلوديوس من وصف الشهواني ماسين، وعرف حاجته.. ولكنه أشفق عليه.. ما هذه اللعنة التي لعن بها صديقه؟ هل من شفاء منها؟ أراد أن يروح عنه أو أن يبعد هذا العذاب عليه.. فأخذه معه إلى معبد صلامبو، الليلة ليلة بداية الربيع وتساوي النهار مع الليل، ستزهر قرطاج لتضع لآلهتهم تانيت قرابين ثمينة داخل معبد صلامبو المشيد على شاطئ

البحر، مئات من السفن الحربية كانت مليئة بالهدايا والعرائس أيضا، المزينات بالجواهر والذهب الخالص، كن مبتسمات تشعر بقلوبهن تختطف السعادة من ظلام الليل، الرجال يحملون أغصان الزيتون والتي قد يضعها أحدهم على رأس عروسه أو حبيبة قلبه المختارة تانيت الآلهة القرطاجية التي ترمز للخصوبة والأمومة والحب، ينيرها البدر ومشاعل النار والجواهر والنساء الجميلات... فيا لها من ليلة لتانيت! ستبدأ فيها الاحتفالات المبهجة التي تدوم لثلاثة ليالي في السنة، لا تكتمل طقوسهم إلا إذا تحرر العبيد ليتساوى الجميع، فتكتمل أفراحهم كاكتمال هذا القمر المستدير، كل النساء يلبسن لباسا جميلا إنهن يفتن الأفئدة، أكاليل الورد، تزين شعورهن وضفائرهن، كما أنهن يلبسن قطعة واحدة من الثياب الحريرية البيضاء، ويضعن أجنحة طويلة على أكتافهن من أرياش الحمام، ليصبحن مثل الملائكة التي تسير على الأرض، ترى الواحدة منهن تحمل في يد حمامة وفي الأخرى مبخرة مملوءة بحبات الجمر التي يتسلل منها خيوط البخور، وأما معبد صلامبو كان يعج بالمحتفلين والذين يقدمون الهدايا والقرابين الغالية المليئة بالذهب والفضة والحجارة الكريمة الملونة، امتد نظر ماسين لأعمدة المعبد الضخمة، المزينة بلوالب ذهبية تزداد بريقا كلما كثرت المشاعل التي يحملها الوافدون إليه، أما الكهنة فهم يلبسون ثوبا كتاني شفافا وطويل، يمتد عند الكتف

اليسرى منه شريط مستقيم، كان بعض من الكهنة يربطون شعر رؤوسهم برباط من المعدن المذهب أما الآخرون، فهم يغطون رؤوسهم بقبعات عالية شبيهة بالطرابيش، هؤلاء يحيط بهم أولاد تانيت وهم فتية لا يتجاوزون الخامسة عشر نذروا أنفسهم لخدمة المعبد والكهنة، منهم من يمارسون الحلاقة المقدسة، ومنهم الموسيقيون الذين يعزفون على الناي والطبل وآلات يشبه وقعها وقع الأجراس لكنها ذات أنغام متناسقة وممتعة.

كم الليلة جميلة! مضيئة.. عطرة، كل الوجوه تبدو مبتسمة تتوقع منها ممارسة طقوس هذا العيد الشاعري دون توقف.

اندمج ماسين في هذا العالم البهيج، هو لم يكن يؤمن بآلهة قرطاج ولا آلهة نوميديا، كان يؤمن بالمادة التي إن لم تتنفس وتتحرر فسينتهي معها كل معنى للوجود والإنسان.. فهو ذات مادية وشهوانية..

نقاش الإيمان الذي أثاره كلوديوس عندما ذكر الآلهة تانيت، استحوذ على سخرية ماسين الشهواني، الذي لا يؤمن بشيء، سوى بمثالية الجسد واقتران الرغبة به، إن تحققت ولد وعاش كل مرة يمارس فيها الحب، وإن غابت انتهت بموت الإنسان وبؤسه.

-الفِراش مكان عقيدتي يا كلوديوس، لا أؤمن بالحجارة التي تخلو من الحب... انظر لها إنها تماثيل صامتة، لا تغازل... لا

تشتهي... لا تحارب روما العظيمة... أليست ممارسة الحب هي سبب وجودنا؟ فكيف لا أعبد هذه الرغبات؟

ماسين سيصيب صديقه كلوديوس بالجنون، كل إيمانه ومعتقداته هي عبارة عن شهوات.. استغربه حيره أمره... إن الأصنام أرحم من ماسين وأفكاره...

في الحقيقة... رغم غرابة كلمات ماسين بالنسبة لكلوديوس إلا أنه يراه محق في جانب منها، فكيف لهذه التماثيل الجامدة والمتحجرة، أن تخلق الحياة، أتنطلق الحياة من الجماد والعجز؟ إن كان كذلك فحتى معبد صلامبو وأعمدته الضخمة التي يراها جامدة في مكانها منذ دخل قرطاج، تليق بها العبادة.

سأله متفلسفا وهو الذي يحب طرح الأسئلة والتفكر:

"أنت لا تؤمن بآلهة قرطاجة ولا روما.. وتؤمن بغرائزك وشهواتك على أنها آلهة تحيي روح الإنسان وتميته بالنسبة لك.. إذن فآلهتك هذه... عابثة وغير عادلة.. ظالمة يا صديقي ولا أشك إلا أنها شيطان يتلبس جسدك وعقلك كله.. وهل تعرف ما مصدر ظلمها؟"

أجابه صديقه الشهواني بالنفي والتعجب، فرد عليه كوديوس:

"الرغبة متقلبة... كيف لي أن أشتهي مثل هذه الأنعام؟ وكيف لي أن أتصور آلهة تسكن الجسد والتفكير؟ إن لم تمتلك

هذه الآلهة قوة أسمى وأقوى من هذه الرغبة، فأظن أن هذا العبد الذي أمامك أسمى وأقوى منها.."

ضحك ماسين وأخبره بأن شهواته هي من تسيطر عليه ولن يفعل هذا إلا إله.. ولكنه أصبح يظن أن من يسيطر عليه ما هو إلا شيطان ومارد مجنون..

كانت النساء، يتمعن في جسد ورجولة ماسين، إنه فتنة لهن، يبدو كفارس اخترق البرق ومن السماء سقط على هذه الأرض، وسيم يأخذ بلبهن بأفئدتهن.. في نظرهن يستحق أن يكون بطلا من أبطال نوميديا وقرطاج وروما إنه كأسطورة فلافيوس...

جسد نصفه عاري يحمل بين أكتافه سهامه، فتنهشه نظراتهن

لقد ظهرت فتنته النوميدية في احتفال كبير لقرطاج كما ظهرت أحقاد لعيون الرجال التي ترى ماسين غريبا يسرق نساءهم من طقوس لا ينتمي هو إليها.

كلهن لا يشبهن وهج ونور تنارا، داخله ضوءها روحها تنغص عليه حياته المبتلاة أصلا.. رغم رغبته الجامحة التي يبادلها جسده، إلا أن قلبه مملوك لها... ماسين الذي يعبد المادة ويؤمن بمثالية الجسد، تغريه ندبة وجه تنارا وتشوهاتها... لماذا يتذكرها وسط حممه واشتعاله؟ لماذا لا ينساها والنساء هنا تشبهن الملائكة التي تسير على الأرض...

إنه يخشى أن يفكر فيها، إنه يخشى هذا جدا.. يشعر أنه يخسر هويته مع ذكراها.. هويته تلك في انفصال عن صوفية تنارا... فأراد من أعماقه أن يرفس ذكراها ويحرقها وسط حممه المشتعلة.

لهذا ساقه هواه إلى إيلينا... نظرت إليه من السفينة التي تجانب المعبد، بعيونها الزرقاء الأخاذة وابتسمت، فبادلها بنظرات كأنها لغة ستفهمها دون ريب.

نظر كلوديوس إليه مرتبكا، معاتبا:

"أظنك ستتورط مثلي.. هل تعلم من هذه؟ إنها ابنة أخ القائد ماغون، وابنة الملك أجينور بذاته... وحق آلهتي لن يقتلنا سوى هذا الجنون."

ضحك ماسين على صديقه كلوديوس تكلم بتهكم:

"لا تقلق.. إنها سهلة وستقع حتى لو كانت ابنة الآلهة نفسها..."

صعد للسفينة، يتمسك بمراسيها إلى أن وصل إليها في طرفة عين.

الأميرة ابنة الملك أجينور، وعمها ماغون الذي لا يرحم أي أحد، يتربص ماسين بعيونها الملونة، وانشغلت هي بهذا النوميدي.. ماسين الشهواني، لم تكن تعلم أنها ستسقط في فخه، ليسرق قلبها أثناء الليل والنهار، ويجعلها تقتل وتسرق وتنهب لأجله.

لم يهن على كلوديوس، أن يترك صديقه، جلس يتمعن في نظراتهما ويتساءل عن السر الذي لا يجعله يهاب شيئا... إنه متهور لن يعيش طويلا بهذا التفكير المحصور في لحظة تنتهي بقبل أو لقاء في الفراش.

إيلينا شقراء تسلب العقل، جريئة عابثة... تجرها المغامرة إلى جحر الذئب لكنها قبل ذلك تدرس كل شيء مخططة بارعة أيضا.. إنها داهية قرطاج كلها.

لم تحب يوما إينولا، ولا إينولا ابنة عمها أحبتها شخصيتان مختلفتان كأنهما الشرق والغرب الليل والنهار.

كلما التقت إحداهما بالأخرى، إلا وحضرت الغيرة والحسد فترمي إينولا بسمها لتبادل إيلينا لدغتها، بسم أعظم منه.

سقطت هذه الشقراء الفاتنة والداهية في غرام مضغي وسقط هو في جسد مدهش منحوت ودون خطأ.

نست أنها قريبا ستصبح زوجة، لأحد أولاد الملك روموليوس ملك روما وعظيمها.. كأنها ستلعب بالنار وستجر بنفسها إلى عمق الجحيم.

الغواية... الغواية لا تعرف الألقاب ولا الصعاب ولا تترك فرصة لبعض من التريث والتفكير.

نزلا من السفينة، في وسط عيون تراقبهما من كل الجهات ظنا أنهما سيختفيان وسط هذه البهجة والاحتفالات والصخب، ولكن هيهات... الأميرة إيلينا حاشيتها تبلغ العشرات

يحرسونها من الهواء والبحر والموج... أتريد أن تهرب مع ماسين الشهواني حقا! الذي أصابها بالعمى ففقدت سبلها وعقلها... أما هو فقد جن جنونه حممه تتصارع كالموج، إنها بين يديه مستسلمة، لقد شغفها حبه وتملكها... لو أراد قلبها، ستقتلعه من جوفها بإشارة منه.

لم يتمالكا نفسيهما، لكن حاشيتها تراقبها وتلتصق بها كالظل ولن يتركونها أبدا على هواها، وبعد لقاء ملتهب سُرق من الوقت لم تستطع الصبر، فضربت موعدا لماسين ليحضر في الليلة الثانية لاحتفال تانيت.

رجع لصديقه كلوديوس، يلعن حب الأميرات، لقد كان ثائرا كثور هائج، غطس في البحر في تلك الليلة ليطفئ حممه وبراكينه.

والغريب أنه كان مشغولا بالتفكير، لم تكن الشقراء الفاتنة محور تفكيره، بل كانت صور تنارا، أصبح الأمر متعبا ويثير غضبه، إنه يذكرها في كل وقت دون رغبة منه إنها تسكنه وقد طردها من حياته وتخلى عنها، إنها موجودة تلازم روحه فتقلق سلامها واعتيادها وسباتها من فؤاده كلهن يشعرنه بمجرد الرغبة، أما هي فمختلفة... هي فقط من تشعره بهذا القلب الذي ينبض... وينبض كلما جاء اسمها داخله... حتى أن اختلافها يجتاحه، يغيره من العمق فيشعر بأنه شخص آخر...

من يعاتب ماسين؟ ومن سيجيبه على حب يطرده فيرجع إليه مرغما؟... أيعاتب نفسه التي تجره إليهن؟... ثم إليها.. لتكون الأخيرة التي تتملكه بندبة وجهها بتشوهات جسدها! بكل عيوبها التي يكرهها؟... أم أنه يحبهن جميعا! ولكنه يحبها هي فقط؟.... لا عتب عليه.... بلاؤه شر بقدر عذابه وغوايته.

مضت الليلة دون نوم.. كل قرطاج لم تغمض عيونها فمن ينام في ليالي تانيت؟ الخدم والعبيد لا يعملون... يتحررون فيصبحون سادة، كلهم يستطيعون التملك والشراء والحب والزواج... كل بذور الأرض ستنضج وكل الورود ستتفتح... كلهم سيعشقون.. إلا ماسين، يتعذب بجمال بلائه وقلبه أسير للشهوة ومرة للعشق.

إنه يفكر في امرأة لا يستطيع الاقتراب منها، إنه يكرهها بحب، قرر أن يستبدل صورها بإيلينا الشقراء، الذي يضيء وجهها أكثر من بدر تانيت.

لكن كلوديوس يحذره دون هوادة، فماغون ووالدها الملك أجينور لن يرحماه، الأميرة هي صفقة لتهدئة الأوضاع السياسية المتوترة بين روما وقرطاج، سيحرقونه دون شفقة ويقدمونه قربانا لإلههم بعل حامون... كان كالمجنون يعلم علم اليقين أن ماسين سيحرق نفسه وكل نوميديا.

لكنه يتبع هواه وشهوته دون عواقب، ذاكرته الممسوحة التي لم يستعدها، كانت مخذرا لعقله، لم تنبهه لتلك الليلة

التي هرب فيها من موت محقق على يدي أهل قريته آريس إنه يظن أن هناك قوة خفية ستحميه وتنقذه لتحبه كل نساء الأرض.

كانت شهوته الدافع لجنونه وتهوره، ولكنها الآن تدفعه الرغبة لنسيان تنارا من عقله وطردها من قلبه، تلك المرأة لن ينساها إلا بامرأة أجمل وأرفع منها مقاما.. هكذا كان يظن وهو لا يعرف ما يخفيه القدر له.

الليلة الثانية لاحتفالات تانيت، كان الجميع في معبد صلامبو، خططت تلك الأميرة الشقراء، لتلتقيه على السفينة ذاتها التي يقبع عليها كل حراسها وحاشيتها.

طلبت منه عندما التقته لأول مرة، أن يتسلل للسفينة وقت الظهيرة، هناك ستنشغل حاشيتها بتناول وجبة الغداء. تركت له باب الغرفة الملكية مفتوحا... رغم تساوي الملوك والعبيد في ليالي تانيت الثلاث، إلا أن الملك لن يسمح لها... وإن كان هذا خفية عن كل من يؤمن بهذه العادات... بأن تتساوى أميرته بأحد من العبيد..

عندما فتح الباب، دخل لعالم آخر، إنه نعيم الملوك الذي لا يشبه كوخ صديقه كلوديوس، تلك التحف واللوحات التي تزين جدران غرفتها، تلك الفسيفساء الرقيقة على سطح هذه الغرفة التي ترسم أجسادا ملائكية مدهشة، الذهب... يغطي

الجدران، إنه فن الأثرياء والخاصة الذي يأخذ النظر نحو الخيال...

نام فوق أريكة إيلينا ينتظرها، وبدأت معالم الغروب تنتشر في الأفق، ليسكن الليل معبد صلامبو... وتنيره المشاعل الذهبية الجميلة.

لكنها مع أول طبول وأجراس الاحتفال، دخلت لغرفتها وغلقتها عليهما، لم تطق صبرا عليه، كان يسكن مخيلتها فتنتشي في عالم ممتع.

تبادلا اللمسات والقبل ودخلا نحو مشاعر فوق السحاب ودون حساب للعواقب.. ربما... سيسلبهما هذا الحياة... إما حياتهما القديمة أو الآتية.

ماسين لا تشبع شهوته، ما زالت لعنته ذاتها منذ كان في آريس، لا يغني أمر الفراش من رغبته شيئا... إنها متقدة لا تطفئها حتى أجساد الأميرات.

تركها نائمة، وقفز من نافذة غرفتها نحو البحر، يريد أن يطفئ جحيمه... نفس النار التي تحرقه... نفسها تحرقه وتشتعل داخله، فلا شيء مختلف، كلهن يتشابهن في المذاق في الطعم في اللقاء، إلا هي... إلا تنارا... كلما حاول نسيانها غرق فيها أكثر... إنه موجوع بها تحتله وتأخذ تفكيره... وقد فشل في اختراق عقله لاستئصالها منه.

كان يسأل نفسه بحرقة، كيف لهذه المتصوفة أن تأخذ فؤاده وعقله؟ إنه يعبد الجسد، مأخوذ بمثالية المادة وتكاملها فكيف له وهو بهذا الطبع والمعتقد، أن يعشقها؟ إنها مشوهة آثارها الجسدية قبيحة تثير اشمئزازه، رغم ذلك يفكر فيها بحبها، يستلذ بخيالاته معها، أكثر من كل واقع وملموس... يا للنقيض!.. تتعاكس رغباته وطبعه وعشقه إنه يعيش الفوضى التي لا يطيقها.

رجع لكوخه، لم يرد البقاء لرؤية الجميلات كعادته والاحتفال، إنه هائم محتار... ضائع في هذا الوجود وبين نفسه يعلم أنه يمتلك مفتاح الجنة، لكنه لا يستطيع دخولها، لا بد أن الجحيم أفضل من عذاب ماسين ولكن... حتى الجحيم ببؤسه لا يرضى بدخوله إليه.

أصبح يفكر في اقتلاع هذه الشهوة من الجذور، أصبح كئيبا وقد يئس من السيطرة عليها على جسده وحياته كلها تراءت له فكرة مظلمة وهو لا يذكر أنه كاد أن يفعلها قبلا لولا والدته أيور، لقد تراءت له نفس الفكرة.. لربما في انتحاره ما يخلصه من هذا الصراع والعذاب والقلق، إن هذه الرغبة تتملكه وتسيطر عليه، وتُسَيِّرُهُ نحو هلاكه وعذابه الأكيد.

وساورته فكرة أخرى... فلعل اقتلاع عضوه بفأس كلوديوس، ستطفئ جمره المشتعل، لكن رغباته تسكن داخله في العمق، يحس بها ككائن منفصل عنه، تتلبسه وتأخذ جسده

وروحه... بل إن هذا الجسده مجرد عبد لشيطان رغباته المريد.. بل لربما.. كانت السبب في خسارته لحب وحيد وجده يوما في روح جميلة، تسكن جسد تنارا المشوه.

الموت! هل هو شفاء لماسين؟ هل اقتلاع عضوه ورمز رجولته، سينهي عذابه؟

إنه في حرب... والغريب حرب في جنة يملكها، كل النساء بعروشها وممالكها قد تسقط تحت قدميه، كل أبواب القصور مفتوحة له، لو يأمر بأمره لتسابقن إليه ليرضى... ولكنه في حرب لا ينجو منها إلا بقدر من السماء.

وبدأت فتنته تفعل في قلب إيلينا الشقراء، ما لم يفعله في قلبها أحد ولا حتى ابن الملك رومولوس، شغلها ولم تستطع نسيان ليلتها، أصابها الجنون فقد كان الجميع يفتنون بجمالها وحسنها، فمن ينساها؟ ويترك ودها ويرحل؟

زاد الشوق، ونقص العقل، وابتليت بمرض العشق وعذابه فأخذت تسأل عنه وترسل من يستفسر عن مكان شاب في العشرين من العمر، يحمل على كتفه حزمة من النبال. وإن غاب عنها بعض الساعات من النهار..

وصل الخبر لكلوديوس، جاءه مسرعا وهو يجلس على باب كوخه، وأخبره أن جنود الملك، يسألون كل قرطاج عن قادم غريب يصفونه بالوسامة والقوة، وأنه يحمل السهام على كتفه، فأجابه بعد هنيهة من الصمت أنها إيلينا هي التي تبحث

عنه، لربما تكاد تصرخ في كل قرطاج باسمه ثم صمت مرة أخرى وظل شاردا لا يعلم أحد فيما يفكر فيه ذلك النوميدي.

كلمه كلوديوس بلغة العاشق، عن حبيبته إينولا، وذكره بما وعده وأنه يراه الرجل الحر الذي لا يخلف له وعدا.

لقد نسي ماسين في غفلة الهموم، قصة صديقه مع إينولا لهذا رمى كل ضيقه، وأخبره أن في هذه الليلة الأخيرة من احتفالات تانيت، سيفعل بنباله ما تفعله كلمات الشعر الجميلة بالقلوب.

لم يكن كلوديوس شاعرا، كان يحفظ ويكتب أشعار الحب والغزل، طلب منه أن يعيد كتابة كلمات شاعرية على جزء من القماشة، كي يعلقه في سهمه، لكن كلوديوس، أخبره أن إينولا لا تحب الاحتفال، وتبقى أغلب الوقت في غرفتها، ولا تخرج حتى تنتهي احتفالات تانيت.

ومن قال أن خطته ستقف ببقاء إينولا في منزلها، طلب منه الكتابة على القماشة، لأن إينولا ستقرأها هذه الليلة.

إنها تكره كل احتفالات قرطاج، لأنها لا تجد فيها روحها الضائعة بين الأنثى والذكر، القسوة باتت مشاعرها التي زرعها والدها ماغون في قلبها، وعلمها أن تجعلها لغتها الأم فأصبحت عديمة الرحمة وارتسمت في كل تصرفاتها، الكل كان يكرهها.. المرتزقة الذين يعملون في إنشاء السفن، كانوا دائما يرمقونها بنظرات خفية من البغض والحقد، لأنها لا تنفك في استعمال

سوطها لجلد أي أحد لا يعجبها، حالهم حال العبيد والخدم إلا كلوديوس الذي كان يراها ضحية لفلسفة ماغون الطاغية وما هي إلا أنثى في جسد تنين لا تظهر إلا وقت عزلتها.

قوة شخصيتها اصطبغت في تقاسيم وجهها الرجولية لهذا كانت ابنة عمها إيلينا، لا تترك فرصة إلا وتذكرها بقبحها وبشاعتها، وأن الحب والجمال شيئان لن تحصل عليهما طوال حياتها.

لكنها رغم تظاهرها بتلك الهيئة المليئة بالتماسك والصلابة إلا أن السهام التي تطير لها من بقعة في الأرض تركت في قلبها أثرا عظيما، أحست أنها تعيش حلما مستحيلا، فمن هو هذا الغريب، الذي يصوب ببراعة يكسر فيها برودة ووحدة وقسوة إينولا دون خوف؟ لا بد أنها شجاعة وحب... شيء لم تعثر عليه في حياتها من أحد لا المال ولا النفوذ ولا سلالتها الملكية، شفعت لها لتجد منفذا لعاطفة مكبوتة سلبتها أنوثتها وطارت مع الريح... إن مشاعرها المختلفة والجميلة تولد في عالمها الكئيب مع كل سهم يطير إليها، فكيف يحدث هذا لامرأة متحجرة تخلو من النعومة والجمال؟

في غرفتها... وبين وحدتها وسكونها، تمسك تلك القماشة التي كتبت بخط صوفي، وبشكل سريع وسيء، وبلغة تحمل رائحة والدتها، وبعمق مضيء ينتشلها من ظلام والدها ماغون.

بدأت السعادة تزهر داخلها، فتبتسم ابتسامات رقيقة وقاضبة، تتخيل ملامحه، ترسمه فارسا من روما، أرسلته والدتها التي هجرتها، لتسأل عنها، تتخيله في خيالاتها رجلا دون وجه، دون ملامح، لكنه يحمل حنان أمها الذي لم تذقه، وأمان والدها المفقود للأبد.

في الليلة الأخيرة من احتفالات تانيت، كان قصرها يخلو من الخدم والعبيد وحتى الجنود، يبدو مخيفا دون بشر ولكنها ابنة ماغون، الذي نزع مشاعر الخوف من صدرها واستأصله بتجارب مريعة، كانت تتشكل لها كوابيس في كل ليلة، لتصحو متعرقة مع نبض سريع يكاد يخرج فؤادها من مكانه.

ماسين الشهواني، الذي يجد هذا العبد الروماني المغرم بسيدته القاسية والمخيفة، يراه صديقه الوحيد وربما الأخير.

ذلك الذي سرق لأجله الطعام، وكاد يقتل لأجله سيفديه بحياته لو تطلب الأمر، كلاهما كان كذلك، لا عائلة لهما سوى هذه الصداقة، التي ولدت من الحاجة والعوز والتضحية ونمت في وجع الغربة والاغتراب.

أراده سعيدا، لهذا كشف عقله عن براعة في التفكير العاطفي، خبرة كلها محيت من ذاكرته، لكنها كشفت عن أصول تفهم جنس النساء ككف يده.

إينولا القاسية، فارسة متمكنة، لكنها ستسقط في فخه الذي نصبه لها، لأنها امرأة... لأن لغة النبال والحب، لا يفهمها إلا من تشبع بالحرب والجنون.

كتب كلوديوس بلغة روما التي تحن إليها حبيبته، وصاغ لها كلمات عن عيونها التي يحبها، لكنه في هذه المرة طلب منه ماسين أن يطلب منها أن تعطيه إشارة تخبره عن حبها أيضا.

"أليس هذا مبكرا يا صديقي؟ أخاف أن أرى عكس أحلامي وأمنياتي التي تضاهي الجبال طولا.. أخاف أن تصدني فتنتهي آمالي يا ماسين."

هدأ ماسين من روع وخوف كلوديوس، وأمره بفعل ما يطلبه منه، ولا يسأل عن شيء آخر.

خرجت إينولا من بيتها، الذي لا يبعد كثيرا عن معبد صلامبو، ترى وهج الاحتفالات وصخبها، ففي هذه الليلة تكون في ذروتها... وإن كان هذا في مكان قريب من قصرها..

ودخل كلوديوس كأنه عفريت، ليضع السهم والقماشة التي كتب عليها ما أملاه عليه فؤاده، وهم بالرحيل.

لكنها في لحظة رأته يخرج بطريقة تثير الغرابة، وهي تعلم عن عبدها هذا، بأنه كتوم ولا يتكلم إلا إذا رأى ما لا يعجبه ليعاقبه ماغون بطريقة مزرية، فكل ندوبه وجراحه الملتصقة بجسده كالأوشام، كانت من صنع والدها على جسمه.

الغريب... أن كل تلك القسوة التي تسكن إينولا، لم تمنحها الشجاعة لكي تقترب يوما من كلوديوس، ربما لأن أصله من روما، موطن والدتها الذي تحن إليه... كان هذا ما يمنعها من لمسه أو حتى الكلام معه.

دخلت غرفتها لتجد ما لا تتوقعه، شيء يضع العقل في الكف، لأنها ربطت خروج كلوديوس برجل السهام والقصائد...

أغلقت باب غرفتها بقوة كأنها تخفي الحقيقة عن نفسها وعن كل العالم، وأحست بقلبها يرتجف، ثم جسدها.. ثم يداها.... أمسكت السهم ونزعت القماشة منه، إنها رسالة طويلة بعض الشيء، قبل أن تقرأ.. أنفاسها تتسابق للخروج.. صدرها يصعد وينزل من السماء إلى الأرض، لهذا شعرت بكل كلمة تصنع لها عالما مشوقا وجميلا ولكنه مرعب جدا، طالما والدها ماغون موجود فيه.

هدأت نفسها... فبقيت بعض القشعريرة التي تسري داخلها، لتذكرها بأنها رغم كل كلمات السوء التي قيلت وتقال عنها، رغم تخلي والدتها وقسوة والدها، هناك إنسان ما... يحبها... ويكتب الشعر لأجلها، وينتظر منها أن تشعر وتحس به إنها سعيدة لأول مرة في حياتها، أسعد من كل العبيد الذين تحرروا في ليالي تانيت.

لم تره عبدا، لقد نظرت إليه إنسانا يحبها، بخطاياها بقسوتها ومساوئها وحتى ببشاعتها...

لم تصدق ذلك، جافاها النوم، كانت عيناها مفتوحتان، لا ترمش إلا قليلا، إنها تحلم وهي مستيقظة.

نسيت مشاعل غرفتها تنير الأرجاء، وكلوديوس ينظر إليها من بعيد، يسأل ماسين في كل لحظة ويكرر ذلك بشكل مجنون إن كانت سترسل ردا على حب كان يعتقده مازال فيه مجهولا فيخبره أن نور غرفتها الذي لم تطفئه كعادتها، دلالة على أنها تقرأ وتكرر ما كتبه.. وكانت بالفعل قد اعتنقت حبا ممنوعا بين العبد وسيدته.

لأول مرة يعرف قصر الطاغية ماغون الحب بين جدرانه أما قصر الملك أجينور، فهو محموم بجنون إيلينا التي تحترق بحب رجل نام معها ليلة واختفى.

كبرياؤها الذي كان يصور لها أنها مرغوبة دون ريب، اهتز وطعن من الخلف، لم تشفع لها سلالتها الملكية التي تمتد لأجداد أجدادها من صور إلى قرطاج، لم تشفع لها عينيها الزرقاوين، كأنهما محيط أزرق شاسع وغير محدود... جمال جسدها المنحوت كالتماثيل، فتنتها... أموالها عبيدها... لقد رماها ماسين في جوف البحر ورحل... بقدر حبها وشغفها الذي تحول إلى هوس، برجل مكتمل الرجولة، قاسي القلب، تركها بعد أن امتلكها ورحل.

بقدر ذلك تحبه وتكرهه، تكرهه وتعبده... لقد جن عقل إيلينا... لقد جن من ليلة واحدة مع ماسين...

وعندما غاب عنها اشتعلت نيرانها، ولم تجد سبيلا لتعثر عليه.

لم تترك مكانا إلا وبحثت فيه عنه، وأرسلت من يتقصى عن رجل لا يشبهه أي رجل، عن حامل للسهام، التي اصطادت قلبها وروحها، وأصبحت من طريدة لمطاردة عاشقة.

طال عليها الصبر والعذاب، فبهتت ملامحها الجميلة وتمكن منها مرض يفتك بالشهية والنوم والحياة...

في قصر الملك أجينور، يوجد أولاد غير ابنته إيلينا الجميلة يتنافسون في تقاتل صامت، على عرش قرطاج.

ويخافون من عقل تلك الفاتنة، فقد ورثت من جدتها أليسار القوة والدهاء، وفاقتها بالجمال والفتنة، لقد أخذت قلب والدها وأرادها أن ترث عرشه، لكن أولاده جميعا لن يطيقوا أن تكون سيدتهم وولية نعمتهم... إيلينا..

دبر شقيقها حنبعل تو قصة خطبتها لابن ملك روما روموليوس، ليبعدها من الملك ومن القصر ومن حب والدها لها.

ونجح في ذلك، بعد مكائد وخطط وأموال كثيرة، كم تراءى له أن السم في عصير العنب الذي تحبه أخته حلا من الحلول ولكنه يعلم أن والده سيقتلهم جميعا، وينجب من نسله آخرين، فاهتدى لتوريط إيلينا في زواج لن تستطيع رفضه لأنه سيهدد عرشها ويفسد قلب والدها عليها.

قبل أن تسقط في عشق ماسين، قبلت وقد أغواها عرش روما، والذي ستربط وطنها بعروق تمتد لوراء البحر.

الداهية.. كانت تفكر، في الزواج من ابن رومولوس ماركوس الذي سيرث عرش والده ويحكم روما الجديدة.

ماركوس كان يختلف عن والده، كان ضعيفا ومشتتا وغير سوي لا يحب الحرب ولا يسع طموحه لتوسيع حدود مملكته كل شغفه كانت النساء والخمر والقمار واللعب بكل أموال والده دون اكتراث، يقال في السر والعلن أن الملك رومولوس اختطف النساء من "قرى سابينس" في هجوم حيك له بليل لهذا فقد لعنته إحداهن وكانت ساحرة عظيمة ليصبح عاقرا لا ينجب بعد ولديه نوما وماركوس أي ولد آخر.. ولكنه فقد ابنه البكر نوما بعد أن هربت والدته إيديرا به واختفت عن الأنظار للأبد، دون أن يعثر على أثرهما.

عندما التقت إيلينا بماركوس، أعجبت بتفاهته التي ستجعله خاتما في إصبعها، لكنها كرهت فيه، أنه لا يحب الحروب ولا تهمه امتداد الأراضي لمملكته، وكأنه سيقف حجر عثرة أمام مخططاتها التي لا تخطر على بال أحد.

إيلينا كانت ستقلب خطة أخاها حنبعل تو، لتعاود احتلال بلادها وتستلم عرشها من عيونه.

لكن الأمور انقلبت يوم عشقت، وأصبح قلبها مكان عقلها فكان من يفكر، لقد حفرت لنفسها سجنا يستحيل أن تتحرر منه.

حنبعل تو كان يراقب بهتان أخته، سرحانها الذي كان مستمرا وفي كل وقت وحين، باتت مختلفة.. إيلينا ليست هكذا... إنها كالنسور محلقة وحرة.. ماكرة كالثعالب مخيفة كالنمور... أصبحت كالذبابة لا يسمع لها إلا الطنين.

أما ماسين، فهو في سفينة أخرى تعاكس رياح بحر إيلينا هو يعيش عذابا يشابه عذابها، لكن هذا العشق محتال لأنه يمسك بقلب الرجل ببطء ودون أن يشعر به إلا بعد أن يتملكه كالطاعون.. كلما مر يوم، ازداد تفكيره بتنارا، يتساءل عن حياتها الآن، عن قدرها، إنه يلوم نفسه كيف تخلى عنها وتركها وحدها في وسط غابة لا نهاية لها.

ندمه أراق النوم من عينيه، وفقد لذة الحياة وهدفها إنه كئيب لا يسري عنه شيئا سوى الحديث عنها لصديقه كلوديوس.

حتى جاء اليوم الذي عاد فيه ملك قرطاج أجينور وماغون من رحلته لقبائل نوميديا وصقلية وروما أيضا.

ووسع من نشاط وأسواق قرطاج، عاد مليئا بالغنائم ومعه شيء آخر ....

استقبل الشعب والكهنة رفقة الحاشية الملكية قدوم الملك وجيشه وغنائمه، في طقوس من نثر حبات الأرز والرقصات والغناء والطبول.. كان ماسين يشعر بالملل لهذا قرر أن يرى الملك وماغون وجيش قرطاج الذي كان يحلم به والده ياغورطة.

تمعن في كل شيء، قرطاج غنية مليئة بالذهب والأموال والثروات والجمال أيضا، غطست عينا ماسين في هذه الحضارة التي مضى من عمرها مئة عام، ما زالت فتية وطرية ولكنها تنمو سريعا وتزدهر وتطمح للوصول لما وراء البحار.

وبدأ يحلم ويتمنى... ماذا لو كان ملكا... لضم قرطاج ونوميديا كلها من أراضي مصر وليبيا إلى سواحل موريتانيا... لأبحر لروما بجيشه وهز عرشها ليصبح ماسيني..

أخذته الأحلام، حتى نسي أن يرى ما يجب أن يراه من غنائم وحتى النساء.. ومن النساء كانت واحدة فقط... من يجب أن يراها.

ولكن للحياة أدوار، إن لم نفهمها سنظن أنها تلعب بنا دون عدالة.. هي تهبنا الفرص، ونحن لا نعرف كيف نفتح لها ألغازها... وربما بساطتها... لقد رأته إيلينا... كان والدها يحتضنها عندما لمحت ماسين، ينظر لهما بجمود.. ولم تكن تعلم أنه يحلم بملك قرطاج ونصف العالم.

انتفضت.... دق قلبها فأحس به والدها فظن أنه الشوق له لكنه كان لرجل تلبسها وأماتها حبا.

هربت من أحضان والدها كالمجنونة، دون وعي ودون أن تحسب لذلك حسابا.

لاحظ حنبعل تو ذلك، فأمر حارسه المخلص بتعقبها وتفرد هو بوالده في غزل منافق ومفضوح، لأنه يريد موته وأخذ مكانه قبل أي أحد.

انطلقت إيلينا كالغزال، تشق طرق قرطاجة، المليئة بشعب يتعطش لسماع أخبار الملك وانتصاراته.

لم تغب عيناها عنه، كان راجعا لكوخ صديقه ولا يدرك من يجري وراءه دون وعي.

وصل لكوخه، رمى لذئبه مانو بعض الطعام، الذي كان طريدة صادها قبل أن يرى الملك، لكن مانو كشر وهو ينظر للباب الخشبي المهترئ، كأنه أحس بخطر يحوم أو غريب...

حتى طرق أحد بابه طرقا خفيفا، استعد فيه ماسين لاقتلاع قلب الطارق بسهامه.

فتح الباب وهو وراءه، وعند دخولها كان موجها أحد نباله إليها، فتسرع لاحتضانه بشوق عظيم... لقاءات الشوق لا تفسر تناقضاتها إن اختلت أطراف المشتاقين... أشواق دون أن تبادلها أشواق أخرى ستكون عبئا على قلوب الأحباء.

إيلينا الأميرة التي يفضلها الملك أجينور على كل أولاده الذكور، والتي سيهبها كل ما يملك وناضل لأجله وكافح، رمت بكل شيء وقدمته لأخيها وعدوها حنبعل تو.. في لحظة حمقاء من الاشتياق والولع.

استمر الذئب مانو في التكشير والقلق، فعرف ماسين أن هناك غريبا آخر وراء بابه، لقد سقطت أخيرا كما يريد أخاها المهووس بالسلطة والعرش.

لكن لهذه الأميرة أيضا عيونا وحراس أوفياء في كل مكان عرفت بفضلهم.. أن أنطونيوس جندي أخاها الخدوم، من لحقها وتتبع آثارها ولا بد أنه سيصل بخبرها للقصر... ولكن هذا آخر همها لأنها سعيدة بروحها التي ردت لفؤادها الفارغ.

عاتبته كما يعاتب المحبون، لكن ماسين في عالم تنارا وكونها ومجرتها، لا يؤمن بغيرها فكانت كأنها تتكلم مع الجدران.

صمتت في لحظة، ليتحول المكان لخواء، علمت بحدس الأنثى أنه مملوك لقلب آخر، لا صلة لها ولو ببعضه.

همهمت تكسر الكلمات كمن يتعلم النطق، لكنها عنيدة لا يمكن أن تتركه لأي امرأة ولأي سعادة دونها.. ولأنها داهية كلمته عن حبه بحنان، وسألته:

"منذ متى وأنت تحبها؟ "

أجابها باقتضاب أنه منذ زمن تتملكه دون رغبة له في حبها رأته عاشقا للثمالة، فغيرت كلام الحب بصفقة قد تغير بها حياتها وربما تاريخها.

تلك الداهية الجميلة الفاتنة، لم تكن اختيار والدها ووريثة العرش اعتباطا، بل لأنها تملك تلك الأفكار الغريبة والمجنونة والتي لن يستطيع تحقيقها إلا عقل مثل عليسار أو حفيدتها.

اطمأن ماسين لحديث إيلينا، الذي لفت انتباهه وجعلته يرى أملا ومتعة والكثير من أحلامه بل وأجمل منها بين كلمات هذا الفاتنة الشقراء.

لقد عاهدته أنها سترجعها له، ميتة أو حية، وستقدمها بين يديه، لكنها اشترطت عليه أن لا يعاند ما تريده منه وإن كانت أفعالا غريبة وغير مفهومة، وبعد أن بخ لها بكل حياته منذ سقط في واد الجنية، وقد فقد ذاكرته وتلاشت مع كل ضربات رأسه، وأنه لا يعرف من أين أتى، سوى من أخبار نقلتها عجوز شمطاء تدعي قرابتها به، لم تأخذ من الوقت سوى زمن سرده لها، لتحكم على لغته التي لن تكون إلا من غرب قرطاجة، ولن تميز غير أهل نوميديا مما يدل على أصله ومكانه.

وذلك سيجلب له، سخطا وطردا من أرضها ومملكتها لن تحبه، لأن العداء الدفين متأصل بين المملكتين وسيعتبرونه دخيلا يود جر أسرارهم نحو الأراضي الغربية.

بعد أخذ ورد معه، لاحظت عليه علته... انتبهت لجسده لأنها راغبة فيه، لقد أدركت فرط سر ماسين الشهواني ولعنته هنا عرفت أن طريقها نحوه لن يكون صعبا، لأنه مرض واختلال أصابه المسكين، وهي من تمتلك عجوزها التي تعرف لكل علة ترياقها ودواءها.

فكرت قليلا، اقتربت منه حتى لاصقته، وأخبرته أنه في الغد سترسل له امرأة من معارفها، لترسم على جسده وشما، وتأخذه نحو مكان لا يخرج منه حتى تبعث له.

رفض ذلك... لا يحب حياة القيد ولا الأوامر، تلك الحياة ستقتله وتفنيه، ولكنها تداركت أمرها وأخبرته في مفاوضة عرفت أدغالها ونقاط قوتها وضعفها، أنه إن ذهب وانصاع لكل ما تريده، ستشفيه من لعنته، وترد عليه عافيته ليعيش دون هذا الألم والعذاب..

جن جنونه فرحا.. صدقها وهو متأكد أنها بحق، لن تخلف وعودها، وأنها أميرة لها نفوذها وعلومها ولربما ستكفيه بها شر هذا البلاء.

ثم أمرته أن يخبر الناس عن اسمه، نوما وألزمت عليه أن يتكلم ويتعلم لغة روما لأنها على وشك أن تغير حياته للأبد.

حب إيلينا مختلف، لأنه قبل التملك يبحث عن أعماق الذات، عن أصل ضحيتها، كم كانت عقلانية وبعيدة النظر! نرجسية وعنيدة بل أن كل كلمة تنطقها، بها حيلة في رأسها

وغرض وهدف... إنها تشبه ماسين.. مادية ومؤمنة بكل ملموس غير أنها خبيثة ولها مكائدها ومعاركها... جميلة وفاتنة ولكن جمالها تسيره لمصلحتها كما تحب.

عرفت من كلامه عن تنارا، أنه غارق في شيء لن يكون إلا الحب العذري، وروحها تسري داخله كما يسري الدم... رغم عقله المادي أيضا، إلا أن ما أصابه من محبوبته لا بد أن يكون قدرا لا دخل لإرادته فيه... الحب الحقيقي إنه يسلبنا إرادتنا ويفعل بنا ما لا تفعله أي قوة أخرى.. ونعم إنها مادية ترى الوجود قد انطلق من العدم ويسير إلى العدم... ولكن أخيرا أصابتها فتنة ماسين وباتت من لحظتها الأولى عاشقة ومتعلقة ومهووسة ومجنونة.. بالشهواني هذا... وكان هذا الهوس به لحد أن تقدم له محبوبته ليبقى معها... لحد أنها قد تقدم أغلى أسرارها له.. لقد شغفها حبا.

ولكن هيهات... فنرجسية إيلينا الداهية لا تعترف بالشركاء من يقاسمونها العرش والحب، المهووسة بماسين الشهواني تخطط لما وراء البحار، لضرب عصافيرها العشر بحصى واحدة، من يضاهي ابنة الملك أجينور دهاء؟ ستغير التاريخ وتضع لمستها لتبني عرش جدتها أليسار، بما يفوق الخيال والتصديق.

رجعت لقصرها، وفي رأسها خطة لوالدها الملك، ولأخيها حنبعل تو ولحبيب قلبها ماسين الذي ستغير حياته للأبد.

وصلت للقصر، وكان أخاها ينتظرها رفقة والدها الغاضب الذي يتوق لحقيقة لن تقول عنها أبدا كاملة وببرودة أعصاب تنهك صبر حنبعل تو، طلبت أن تنفرد بوالدها لتخبره بخبر يفتح أمام قرطاج، طريقا نحو نفوذ وكنوز الشمال، استهزأ الأخ الأكبر من جنون أخته بمرارة وحاول بحقد أن يطالب الملك بمعاقبتها وتقصي الحقيقة ولكنه أحمق أمام عقل أخته الصغرى، يملأه الحسد منها حتى باتت عدوة لئيمة تتلاعب به كما تشاء، فيزداد غيرة وبغضا.

يئس من تآمره في تلك اللحظة وخرج من قاعة العرش تقدح عيناه بالشرر والألم والتوعد كعادته.

بين الملك والأميرة، بل... بين الوالد وابنته حبا عظيما تأسره كلماتها وخططها وحكمتها، مصدر فخره الأبدي، لهذا فهو ضعيف أمامها، تقوده ببعض الكلمات منها، إلى حيث تريد وتبتغي.. كان يسمعها وهي تخاطبه بتلك الثقة وتلك العينان البريئتان في نظره، بقصة نوما... نوما الذي تتكلم وتبحث كل روما عنه، لقد وجدته فاقدا للذاكرة لا يعرف حتى هو حقيقته...

صمت الملك في ذهول، وابتسمت... تلك الماكرة، ذكرته في تلك الرحلة عندما ذهبت رفقته ومع حاشيته الملكية في زيارة مجاملة للملك رومولوس، بعدها عرفت أن لخطيبها ولي عرش

روما أخا أكبر منه، خطفته والدته وهربت في جنح الظلام لوجهة لم يجدها بعدها أحد.

رومولوس الذي لعنته ساحرة قبيلة سابين، ليصبح عقيما فلا ينجب بعد ولداه أي نسل له، قد وضع وشم الذئب على كتف ولداه، وهذا لا يعرفه سوى ملك روما نفسه، وأم ولديه.

سألها في حيرة، فكيف لها أن تعرف هذا السر الذي لا يخرج عن اثنين، لكن تلك الداهية كانت سليلة أليسار تُخرج الأسرار من قلب الحجر كالشعرة من العجين.

لقد همس الملك رومولوس، دون إدراك منه، وفي لحظة سكر وبين لغة مرمزة لا يعرف فيها، مدى ذكاء تلك القرطاجية التي يخاطبها، عن ذئبة أرضعته هو وتوأمه روموس، قبل أن تلفظ أمهما "ريا سيلفيا" أنفاسها الأخيرة لهذا فسيبقي على جميل الذئبة بوشم صورتها على الأكتاف.

لم تتوقف الأميرة عند هذا الحد، فقد جَرَّت ماركوس للاستحمام في ينابيع العين الساخنة، عندما جاء لخطبتها. حتى تتمعن وتحفظ وشم ولي عرش روما وإمبراطورها القادم.

سرت قشعريرة الغبطة في جسد أجينور، ووقف عن عرشه، ليُجلس فلذة كبده التي تأسره ويفخر بها فخرا يوازي الجبال طولا، لتكمل غرابة وتشويق حديثها.

"نعم... لقد وجدت فارسا عاري الصدر والأكتاف، يحمل عليه حزمة من النبال، ووشما أيسر كتفه.. ذلك الوشم

سيجعلنا نضع عروقنا في روما... هل تسمع يا والدي؟... إننا سنضع أول أقدامنا وجذورنا هناك..."

كان يسمعها مضطربا، مدهوشا، يكاد الخيال يصارع الحقيقية والحقيقة تنازله باستماتة، أفكار إيلينا، كلامها يحير العقل.. من قال أنه يجب أن تشن حرب على بلد لسلبه وأخذ كنوزه وثرواته؟.. لا أبدا فكل ما يتطلبه الأمر.. شخص يحالف قرطاج ويمسك بأمور روما كلها... سيكون هذا الشخص هو ماسين النوميدي القادم من جبال جرجرة... ومن قرية حجرية.. معلقة نحو السماء.

قلب إينولا

في ذروة الليل والناس نيام، يشعل خدام المعبد المشاعل التي تحيط بالطرقات، ويتفقدون عابري السبيل ليعودوا عند خيط الفجر الأول لصلامبو، كان كلوديوس يسير وحده بين السبل عبد يهيم بأميرة... أميرة من سلالة الملكات والملوك... يا لقلبه الحالم والمجنون! ولكن إن لم نعش الجنون والأحلام فكيف سنعيش هذه الحياة المملة إذن؟

طرق باب قلبه عشق لا جبن ولا تخاذل يتخلله... وكيف؟ فإما الحياة بقلب ميت وإما الموت بقلب حي...

كان يتمتم لنفسه بعبارات الشجاعة... نفسه تحاول أن تحمل قلبه ذنب الحب.. وحبه يحاول أن يأخذه إلى أبعد نقطة يتمناها... وفي خضم معارك قلبه... كان يراقب المشاعل وخدام المعابد، والسماء وحتى الطرقات، فما أصبره على قلبه المثقل بها! مثل كيس من الحجارة... إن كلوديوس لا يدرك أن مشاعرها تنسحب نحوه كل هنيهة وتترك فؤادها كالخواء.

إشارتها التي ينتظرها، قد مضى عليها يوم ولم تأت، ومر اليوم كقرن عاش فيه مله وانتظاره بلهفة للأحلام التي يتخيلها مع تلك المسترجلة والقاسية والتي تبعد سلالتها الملكية عن عبوديته بعد السماء عن الأرض.

للزمن في قلوب العشاق قيم وحسابات أخرى، يحسون بجزيئاته ويكادون يلمسونها لمسا كي يحركونها لتسرع أكثر من كل وقت. إنهم يرون اللحظات أياما لا تحصى.. والساعات دهورا وسنون..

رجع يائسا لعمله، يفتح أمام أغنام سيده ماغون طريقا نحو مراعي الجبل، يذكر نفسه أنه عبد لا يليق به حب الأسياد لقد شده طموحه إلى ملكه، وحط به في قلب سيراه كعثة أو ذبابة. سحقا! إن قلبه يتكسر كالزجاج... ابتلع دموعه التي ينفرد بها وحده ويسترها حتى عن أغنامه إنها مالحة مثل ماء البحر، بل أملح منه، أينك يا ماسين؟ لترى صديقك يتلوى من ألمه.

لا يعلم كلوديوس أن من يهيم بها تعرف حقيقته، إنه يحسبها غافلة عن هيامه، فكان هذا عزاؤه الوحيد.

غابت... لم يرها منذ أيام، فغاب فؤاده عن ضلوعه وهزمه الشوق رغم مكابرته وصبره، حتى رآها، شيء ما مختلف فيها إنها... تلبس فستانا! وترتب شعرها كالفرس! إنها تضع الكحل! ابنة ماغون تفعل هذا! أتتزين كما تتزين النساء؟

الكل كان ينظر لها بدهشة، وهي كاللبؤة تعرف حدود ملكيتها وقدر سطوتها، كانت عيناها تتشبثان في كل تفصيلة من تفاصيل كلوديوس، وهو ينظر إليها لينسى أنه عبد.. في لحظة حولته نظراتها من مملوك لملك، وارتفعت به فرحته ودهشته

لمصاف أحفاد أليسار، إنه لا يصدق... ولكنه آمن بتلك النظرات بكل إيمانه، أنها تتمعن فيه هو... العبد الروماني المخطط بجراح سوط والدها.... قلب إينولا يأخذ وقته ويعبر بنظرات عينيها، عن شأن كبير لهذا الحب.. إنها لا تخجل ولم تعد تخاف.

موقفها الغريب، جعل الخدم والعبيد يتأججون بين أنفسهم بِحَرِّ دهشة لا مثيل لها... هل هذه هي إينولا؟ تلك القاسية المتكبرة التي يصيح صوتها عليهم فترتعب المفاصل والركب.

لا غرابة... نحن جنس متقلب.. هذا طبعنا منذ كنا أجنة في البطون، نَعْبُر ونتقلب من حالة لحالة وهذه فطرتنا وخلقنا فكيف إن وجدنا يدا تلمس هذه الفطرة وتساعد أنفسنا الملولة.

إنه الحب الرهيب! يا له من صديق روحي أحيانا، ويا له من عدو بغيض في أكثر الأحيان... لقد تمكن من كلوديوس فصارت قدماه لا تحملانه، لأنه يحس بجناحان ترفعانه لمقامها، أما إينولا فصدرها بات كالطبل... تكاد تفقد صمتها لتحوله لصرخة عشق.

هل هذه هي إشارتها؟ أمام الملأ وأمام السادة والعبيد! يا لجرأة ابنة الطاغية سليلة عليسار!

إنها تقترب منه... والغريب أن هذا العبد الروماني، يسير نحوها أيضا، تلك القدمان تحولتا لأقدام محارب وفارس شجاع... وأمام أنظار الجميع، تلاحما كما يتلاحم الجيشان ربطت قماشتها الأخيرة على معصمه، ثم نظرت إليه وتكلمت بوثوق: لقد وضعتها في غرفتي، فها أنا أرجعها لك.

وتكلم ليمحو حواجز الملوك، أخبرها أنه يحبها ويعشق عيناها، وإن كان بعد هذا موته، فليكن موتا سعيدا.

لقد أكملت الطريق، وركبت عربة ستأخذها لقصر عمها الملك أجينور، إنها تنظر إليه كما تفعل عيناه، لغة العيون التي تسوق أبجدية سماوية، لغة تختص بالعشاق ونخبة منهم وحدهم يفهمون مرادفاتها... كلماتها... وعبقرية رمزيتها دون غيرهم.

ذلك اليوم، أحس فيه كلوديوس، أنه يوم ولادته الأول أحس بطعم الأنفاس التي تملأ رئته، أحس بجسده وملامحه وشعر أنه يعرف عدد النجوم وحبات الرمل وذرات البحر... إنه يبحث عن صديقه الذي غير حياته وراهن على حب سيولد بين عبد وأميرة.... يجري يسابق الريح... بلهفة ليصل لمن دفعه نحو مغامرة مفتوحة على كل الاحتمالات.

عرافة قرطاج...

دق باب الكوخ عليه دقا عنيفا، عندما فتح بابه الخشبي المهترئ، رأى امرأة في وجه طفلة، لكأنها في عمر العشر سنوات أحس وهو يتأملها بشيء من القشعريرة تسري في كامل جسده وجهها كان مملوءا بوشوم الأفاعي بل وحتى على أنامل يدها.

في وسط جبهتها وبين حاجبيها ثلاثة نقاط زرقاء واضحة تصطف بشكل عمودي، وعلى جانبي عيناها كذلك ولكنها تعاكس الأولى بشكلها الأفقي، أما على خدها الأيمن والأيسر فهناك ثلاثة أفاعي، كل أفعى تشكل دائرة.. حتى يلتهم رأسها ذيلها، ثم أفعى مستديرة أصغر ثم أصغر منها.

ما رأى في حياته هيئة شبيهة لها، حتى أن تلك العجوز التي التقاها وادعت قرابتها به لم تملك هذه الغرابة والهالة المخيفة التي تحيطها، لقد شعر بقلبه ينفرم بين نظراتها المتفحصة في جسده، انتابته برودة كنسمة الصقيع المتجلدة، وشعور سيء يهمس بين طيات روحه النائمة فهذه المرأة ذات الوجه الطفولي، كانت غريبة ومخيفة وقد لا تنتمي لجنس البشر في شيء، في بؤبؤ عينيها خط يشبه خط القطط، أذناها كبيرتان متدليتان كأنهما أذنا عجوز.. بهما قرطين لأفعى تبتلع ذيلها كمثل وشومها.

عندما رأت هذه الغريبة، وجه ماسين، ابتسمت وهي تدخل دون استئذان إلى كوخه، كلما مدت خطوة تسمع رنين الأساور الكثيرة والخلاخل، ثم تكلمت بصوت جميل... نعم رغم شكلها المخيف فقد امتلكت صوتا دافئا ومريحا لم يكن صوت طفلة بل امرأة ذو بحة فاتنة.

رفعت رأسها إلى السقف، وتتبعت بعينيها الحبل الذي يتدلى منه، ويحمل حزمة من اللحم المقدد، طلبت بعض القديد الذي بدأ يجف من ملح البحر، لقد علقه ماسين في سقف كوخه خوفا من جلب السباع، فنزعه وأعطاها كل اللحم المقدد.

خبأته في كيسها الخشن، بينما راحت تقضم كالقطط من بعض هذا القديد وتتلذذ به.. لتأمره بعدها بالخروج معها نحو معبدها.. أين ستغير من حياته العاصفة إلى حياة لم يتخيل وقعها في رأسه المنشغل بهمومه.

بمجرد خروجه، نظر إلى ذئبه مانو الممدد على الأرض في نومة ليست في وقتها ولا من عاداته... تكلمت باكير هذه المرأة التي تتواجد كل الأزمان عليها.. وجه طفلة في العاشرة.. جسد عجوز في السبعين.. صوت امرأة فاتنة في ريعان الشباب.

- لا داعي من الخوف عليه.. إنه في نوم عميق سيصحو بعد ساعات وهو في أتم العافية والقوة.

تكلم بنبرة حائرة:

- وماذا فعلت له؟

أجابته أنها تكره الذئاب وتخافها... فالذئاب لن تدع لها مجالا واحدا للبقاء على قيد الحياة، لهذا تركت له في بعض مائه عقارا دون طعم ولا رائحة فنام على فوره من لعقته الأولى.

ساد الصمت بينهما.. وأكمل بحيرته مسيره معها.. صوت أساورها وخلاخيلها يملأ أعماق غابة الجبل، إنها تبتعد عن قرطاج وهو يتبعها.... يفكر فيما ورط نفسه فيه... تلك القرطاجية التي تمنيه بدواء يشفي سقمه من شهوة مستمرة وطاغية... ستجعله يتحالف حتى مع شيطانها المريد... ماذا سيخسر ماسين؟ قلبه؟ هو متأكد أن وجعه بتنارا يقظ لا ينام وعذابه بشهوته المتقدة والخالدة داخله ستؤدي به لا محالة إلى الجنون والموت... إذن فلا ريب عنده أن كل شيء بعد هذا لن يورطه بقدر تورطه هو بذاته مع سقمه وقلبه.

وبعد مسير لنصف يوم، تكلمت بصوتها الجميل وملامحها الغريبة والمخيفة، وهي ملتفة له، تشير بيدها لشجرة عظيمة أطول من كل أشجار الغابة.

أنهما سيصلان لمعبدها الصغير، الذي تتعبد فيه للنار والشمس... وقد اتخذتهما آلهة تطلب منهما القوة وعلوم السحر الذي أدمجته بطب الأعشاب، فصار علما مليئا بالشر.. ولا حدود لأسراره التي استنبطتها من حضارات آفلة.

إنها تعبد النار والشمس في معبدها الذي اتخذته وحيدة في رأس الجبل.

وصلا أخيرا.. دخلا إلى معبدها، الذي كان عبارة على غرفة واسعة وفارغة يتوسطها صحن كبير من النحاس.. تشتعل فيه نار متقدة... لفت نظره رسم للشمس على كل الجدران... ولاحظ أن هناك فتحات صغيرة ومستديرة يخرج منها بعد كل دقيقة في تناوب نور الشمس... وكأنها ساعة تشير إلى ساعات النهار.

طلبت منه الجلوس على أرض معبدها جانب نارها المتقدة ثم خرجت، وهي تصدر من خلاخيلها وأساورها أصواتا تشبه الأجراس المتتالية، لتدخل الفاتنة إيلينا... من العاصمة قرطاج إلى رأس الجبل في معبد ماجوسي لاحقته وهي في أكمل زينتها.. تلبس قطعا من الحرير موضوعة على جسدها بثنيات أنيقة عطرها يغمره ويعلقه في جنونه المعلق أصلا منه... إنها تنوي على نية مفهومة وقد بيتتها في خاطرها حتى تلقاه... اقتربت منه ثم التصقت بجسده واضعة أذنها على صدره موضع قلبه، وقد أدخلت أصابعها برقة بين أصابع ماسين، فَسَرَت نارٌ أخرى داخله، هي تعلم أنه لا يصبر على لمساتها فأجبرته بذلك على الالتحام داخل جسدها الملكي المنحوت، إنها فاتنة دون ريب... من يقاوم ابنة أجينور؟ ومن يقاوم هذا النوميدي الذي وزع الجمال بين تقاسيمه بكرم وسخاء؟ تتصرف العاشقة بتهور.. إنها تسوغ لنفسها كل ما تفعله.. تقول... الوطن فداء له

جسدي... سأغزو كل روما بهذا الجسد... تقول أن الحب تضحية مجنونة ومن لا يريد حب ماسين؟

المرأة العاشقة، ستمارس الحب بإتقان، إنها تريده أن يتعلق بجسدها كما تعلقت بجاذبيته القاهرة، لعله سيحبها مثلما تعشقه.

ولكنه... كعادته، يدخلهن جنته، ليخرج هو منها كالمجنون والمسجون... إلى جحيم... نارها لا تخمدها أجسادهن.. إنه الشقاء في قلب ماسين المسكين.

البحر الذي كان يطفئ نار رغبته المتقدة، بعيدا مثل أحلامه، كان هذا واضحا لإيلينا فهمت سره الآخر، الذي يؤرقه ويجعله معكر المزاج ومستعدا للموت أو القتل.. أشفقت على حاله وفهمته أكثر وأعمق.. إذن فنشوته التي لا يصل إليها ولو بعد ساعات من طقوس الحب هي سبب كربه وربما عذابه الذي يعد عظيما..

يا لقوة صبره! لكن قرطاج تمتلك من الطب والسحر ما يدهش العقول... أشفقت على حاله من هذا العذاب... وطمأنته أنها ستكون معه للأبد، رغم أنها لا تدرك مدى قوته التي لا تنضب ولو مع ألف امرأة.

عرفت أنها لن تشبعه، فلبست ثيابها تاركة إياه في ثورة من الجنون المشتعلة... لم تطل ذلك وأحضرت له شرابا أحمر كالدم، وطلبت منه شربه فشربه دون تفكير، تمناه لو كان سما

ليقتله فتنتهي عذاباته، لكنه خر على الأرض في لحظة كالثور كأن داخله موجة عظيمة تلاطم قواه وتخرج منه هذا العبء والعذاب.. ما هذا؟... ما هذا الهدوء والسكينة التي تملأ كل جوفه.. إنه يشعر كأنها تلك اللحظات التي كانت مع تنارا.

لقد أمسكت إيلينا الآن بجسد وعقل وراحة ماسين ليس الحب من فعل هذا.. هذه المرة ليست صوفية تنارا.. إنها فعلة ذاك الشراب الأحمر القاني.. الذي هدأ من رغباته وأطفأ نارها المتقدة في لحظة كالسحر...

لم يصدق هذا... لقد يئس من حالته وكان يظن أن الموت هو عقارها الوحيد... ورغم هذا بقي ممددا ينتظر أن ترجع حالته التي عاشت معه منذ ولادته الأولى... انتظر... وانتظر.. حتى غلبه النعاس وأخذه إلى عالمه.

استيقظ ماسين، لمس عضوه ليتأكد أنه لم يكن في حلم... إنه ولأول مرة كما تمنى رجل طبيعي... لا شيء ينغص عليه حياته.. ولكن... ولكن ماذا لو كان هذا حاله إلى الأبد؟... أحس بروحه ستخرج من جسده... ماذا فعلت تلك القرطاجية برجولتي؟ يا ويلتي.... يا إلهي لو كان ما يدور في عقل ماسين صحيحا فإنه سيقتلها دون رحمة ولا شفقة سيقتلع قلبها من صدرها في طرفة عين... لقد سقته النشوة والمخدر الذي يوقف زحف ناره بين أعضاء جسده... لقد اعتاد عذابه... منذ الولادة

خلق بعيبه وجنونه وفي لحظة أصبح كما تمنى!... لا.. إنه لا يتقبل هذا الشفاء..

فصرخ كالمجنون...

- إيلينا... إيلينا... ماذا فعلت برجولتي أيتها المشعوذة؟

ولا حياة لمن تنادي... لا أحد يسعف عقل ماسين... لا أحد يُكَذِّبُ ظنونه القاتلة... غضب واجتمع معه خوف وسوء ظن... إلا عضو ماسين إلا رجولته... إنه الغضب بل غضب عاصف يتقلب داخل جوفه..

خرج من المعبد باحثا عنها... لقد أنقذته إيلينا تلك الليلة من عذاب يكرهه ولكنه متعود عليه، وأدخلته لسبات خدر فيه كل رغبات جسده... ولكنه جديد عليه فارتعب...

وبينما هو يسير غاضبا، حتى سمع من ورائه صوت رنين الأساور والخلاخيل، لقد تذكر تلك المخلوقة الغريبة التي اقشعر منها جسده والتي تشبه ساليس تلك العجوز الشمطاء، لقد وجد أخيرا من سترشده للجواب الذي يبحث عنه...

هذه المخلوقة التي تعبد النار والشمس، هي عرافة تدين لإيلينا بحياتها، بعد أن أنقذتها من موت محقق، منذ ذاك الحين وهي لا ترفض لها طلبا، تابعة لها إن كانت ظالمة أو مظلومة، أخلطت السحر والتنجيم والعرافة بالطب وعرفت من أصناف السموم التي تستخلصها من الحشرات والأعشاب والأشجار والأفاعي، ما لم يعرفه أحد غيرها.

تفاصيلها الغريبة، كانت من أثر شربها لعقاقيرها، هي عجوز في جسد امرأة ووجه طفلة، وحان الوقت الآن ليعرف ماسين حقيقة وجوده هنا. وسر هذه المخلوقة التي يخافها خفية، دون أن يعرف سببا لذلك.

وجهت إليه سؤالها عن سبب غضبه بغضب آخر منها فما همه ذلك.. أجابها بظنونه التي تمزق رجولته.. فابتسمت ابتسامة ماكرة وأخرجت من بين طيات صدرها قنينة زجاجية صغيرة بها نفس شراب البارحة قائلة:

"هل أسقيك منه؟ لا تخف... لن تفعل بك سيدتي هذا.. ولن أفعله أنا أيضا... ولم سنفعل؟ لا انتقام منك يدور داخل هذا الخلد.. ولكنه ترياق يخفف من علتك.. إنك مصاب بداء كان سيقتلك ويفتك بك منذ ولادتك ولا أدري أي عناية أحاطت بك أيها الوسيم.. مع هذا دوائي سيشفيك طالما..."

وصمتت ولم تكمل كلامها وهي تتمعن فيه فزاد خوفه وسألها فزعا:

"طالما ماذا؟"

نظرت إليه لبعض الوقت... تمعنت فيه أكثر وكأنها تقرأ طالعه... وبعد هنيهة تكلمت:

"لا تخف.. ولا ترتبك.. عندما تعشقك امرأة ستفعل كل شيء لتحميك... ولترضيك.. لن تعطي أميرة مثلها فؤادها وجسدها لصعلوك.. أنت في أمان طالما تحبك... ولكن.. نصيحة

مني.. إذا أحسست منها في يوم ما بغضب دفين... أو شعرت أن عذاب العشق والغيرة تسلل لها.. فلا تأمن على نفسك منها... عندما تنتقم المرأة العاشقة فلن تقتلك.. ستعيش ولكن.. بفؤاد ميت."

إيلينا تريد أن تصنع حبكة لا خلل فيها، فتضرب عصافير الشجرة العشر، ليسقطوا جميعا في شباكها.

تحلم بالحب لهذا تريد استبدال حياة هذا النوميدي بحياة أخرى له، كل شيء تفكر فيه يجب أن يكون في خدمتها ولصالحها... حتى وإن عشقت.. فعقلها سيخطط لها بدهاء.. لتجمع كل ما تريده داخل جعبتها... خططت بفكرة تجعلها تملك عرش قرطاج وعرش روما وجسد ماسين وقلبه.

العرافة باكير تستطيع وشم الذئب على كتف ماسين إنه يشبه تماما وشم ماركوس ابن رومولوس، لأنها تستطيع رؤية ما لا يراه البشر، ويخفى عن أعينهم... باكير ساحرة عظيمة وإنسية وليست بإنسية.. امتلكت قدرات تخرج عن نطاق العقل وتفسير المنطق.. فكانت ترى وتنتقل بروحها لتبصر ما يدور في أوانه وزمانه.. رأت وشم ماركوس وكأنه أمامها.. لتنقشه على كتف هذا النوميدي الذي لا يمت بصلة لروما سوى في الأحلام.

ثمن المخدر الأحمر، الذي يشفيه من الجحيم.. كان ثمنه باهظا وكأنه يبيع روحه لهذه الساحرة ولتلك العاشقة.. إيلينا

قد أشركته دون حول له ولا قوة في لعبة لا يعلم قدر المكر الذي ستصنعه هذه القرطاجية الداهية فيها.

نوما وشم الذئب الجديد...

استسلم ماسين لحيل إيلينا، مقابل مخدرها الأحمر... لقد سيطر على رغبته الجنسية أخيرا... اعتدلت واستوت رغباته الحامية بعقارها الذي ينسيه شهوته التي لا تنطفئ ويصحو بعدها منتشيا سعيدا كأنه في فردوس صنعتها إيلينا الداهية... بين أحضانها الآن النعيم... وداخل قلبه استعر جحيم آخر... قلب ينهشه الحب وعتب آخر يمضغ ضميره.. كيف له أن يترك تنارا وحيدة في غابة لا نهاية لها؟ وكيف له أن لا يحب روحها التي تلمس روحه؟ كل هذا الشوق لها مختلف عن شوق الحب والهيام.. وكأنه يشتاق لنفسه الأخرى.. لنفس ما علم في يوم أنها توجد فيه.. روح قديمة وعميقة وتسكن أعماقه الخفية... الفرق واضح بينهما بالنسبة إليه... إيلينا لا يمكن لأي رجل في هذا العالم ألا يحلم بها.. ولكنها بالنسبة إليه مجرد عاشقة وطبيبة تشفيه من دائه بِمُسكنها الأحمر... أما تنارا امرأة فعلت ما لم تفعله أي امرأة قبلها ما لم يفعله أي عقار.. امرأة استغنت عن ما يطلبه الجميع واستفردت بروحه النائمة لتوقظها من سبات دام منذ الولادة... لكنه يريد أن ينساها ويحذف صورها من مخيلته... بأي عذر كان.

والتفت لإيلينا العاشقة أدمنها... كأنه يريد تعويض حاجته لتنارا بها.. كل مخططاتها ينفذها كما تحب وبالضبط كما تريد

هي تملكته بنرجسيتها وعقلها الذي يفكر بكل الجهات والظروف والأوقات.

تعشقه وقد شغفها حبا... إنها تدمنه في فراشها كالمهووسة أما هو فقد أدمن عقارها الأحمر...

أسمته نوما، ذكرته وتذكره كل يوم وكل ليلة، أنه ابن ملك روما المفقود، وأن عرشه ينتظره... منذ تملك والده العرش

صدق كذبتها، وتلبس شخصية رسمتها له إيلينا بالحرف الواحد، لكن ذلك لم يكن بالكلام والحب... لقد كان بشعوذة باكير وحشائشها التي تخلطها فتحول القصدير... لذهب ثمين.

وشم الذئب كان يدخل العرافة باكير في وضعية مخيفة إنها تنتقل بالزمن بعقلها لأرض ووقت آخر، وترى أمامها أناسا وعالما لا نراه نحن، طقوسها ترعب نوما الجديد ولكنها تشربه قبل اكتمال طقوسها هي، ما يفوت على خوفه فرصة التغلغل فيه.

لتمضي في ثقب كتفه، وخلط دمائه بالرماد والنار والعقاقير، فيتشكل ذئب نوما ملك روما الجديد.

اكتمل الجسد الذي تريده إيلينا، تغير عقل النوميدي من ماسين ابن ياغورطة و أيور لنوما ابن روموولوس ملك روما وابن إيديرا التي خطفت من قبائل سابين.

ألبسته لباس الملوك، ووقف أمامها يسلب لبها ويتغلغل فيها بين الدم والجلد، لقد صنعت منه رجلا أكثر مما تتمنى وتبتغي..

لقد بات شيئا خرافيا وأسطورة حية أمامها بلحمها وعظمها.. هذا الخيال والدهاء يتفوق على كل القصص والأساطير.

وجاء اليوم الذي ستبدأ فيه خطوتها الأولى، نحو عرش قرطاج وعرش روما، كان عليها أن تأخذ ماسين إلى رومولوس ليرى بنفسه علامة نوما.. ابنه البكر الذي هربت به والدته ولم تبق عليهما من أثر.

لم ترد لأحد غير والدها الملك، أن يعرف السر الذي رتبته خوفا على ماسين من عيون وأياد غدارة تحطم حلمها وتخطيطها.

وقف أمامها فرأته ملكا لن تنصفه حتى الأساطير ووقفت أمامه ليراها دواءه ومخدره إنها تروض وتسيطر على رغبته الجنسية الجبارة... بعقارها الأحمر.

التاريخ تصنعه العمالقة وقد تسيطر عليه الأفرشة هكذا ابتدأت أسطورة حجبتها الداهية ابنة قرطاج عن ألسنة وأقلام وعيون كل البشر....

ثورة العبيد

يحمل كلوديوس بين طيات قلبه فرحا بقدر الكون طعمه... لذة لم يذقها قبل هذا، طعم الحب الجميل يغير شكل كل شيء، كأننا كنا قبل أن نحب في عفن الحياة القذر، لا يجب أن ننكر أنه يمتلك صخبا، يأخذنا من ركود أحداثنا لعالم تتضاعف فيه أحجام المشاعر.

صديقه العزيز... من سيفرح له في هذا العالم غيره سيمازحه بأن يعطيه بعض ممتلكاته لأنه قد كسب الرهان يستحق ممتلكاته كلها ذلك النوميدي، خطواته تتسابق مع قدمه اليمنى واليسرى، بل وكاد أن يغمى عليه من دقات قلبه المفرطة التي يسمعها فيرقص معها وهو مسرع في طريقه.. التي يراها طويلة قدر أميال كثيرة.

لكنه لمح من بعيد باب كوخه مفتوح على مصراعيه وذئب ماسين ممدد بشكل غريب، تقلب مزاجه وتكدر فرحه، قلبه يخبره بشيء لا يعجبه.

إنه يعرف صديقه ويدرك طباعه الحذرة، وصل مذعورا لمس الذئب فعرف أنه مخذر لأنه نائم دون حراك وإن نادى عليه، دخل مسرعا لكوخه، كانت أركانه قد أفضت للخلاء وحبل القديد الذي صنعه صديقه يخلو من رزمة اللحم المملح.

وهذا نذير لخطب من الخطوب، التي ألمت بماسين وجعلته يهجر كوخه وذئبه الذي لا يفارقه أبدا.

رجع كئيبا يحمل مانو بين ذراعيه، يسقيه بعض الماء لعله يستفيق، وجلس ينتظر صديقه تلك الليلة لعله يكون مخطئا ويعود..

عزم إن لم يرجع، أن يذهب للبحث عنه، حتى يجده ولو كان هذا آخر ما يفعله، أيستبدل سعادته بقربه من إينولا... ببحث لا يعرف وجهته؟ تلك الخصال لا يملكها الجميع فقد آثره على نفسه ودون تفكير وإن كان به خصاصة.

كان الليل طويلا، وأرقه يملي عليه أفكارا لا حصر لها لعله خُطف؟ لعله قُتل؟... موج من الحيرة والقلق.. كلما ضرب الريح بابه، ظنه ماسين يطرق عليه، ولكن ذلك كان من الأحلام والأماني.

غلبه النعاس وكسر أرقه، فنام غلبة دون اختيار.. غير أنه كان نوم القلق الذي يكسر الجسد ويرهقه، جفنان مغمضان وقلب مستيقظ، حتى أحس بمن يحدق فيه بعد انطفاء شعلة النار، كان مسلوب القوى لا يستطيع الحركة ولا التكلم، هل هو الجاثوم الذي يجثم فوق جسده المرهق المتعب؟... لماذا ترك تلك الأجساد المرتاحة واختار كلاوديوس القلق؟.. وبينما كان يصارع التملص من هذا القيد ويحس أنه يستطيع بقوة جبارة أن يفتح عينيه ليرى سقف غرفته، ورغم الظلام تكشف أمامه

ذلك المارد فرآه.... صورة الجاثوم البشعة بعينين تشعان بالضوء كأنهما أحداق قط في ليلة ظلماء... لم يخف.. وكيف يخاف من جاثوم يشل حركته ويقيدها... وهو من اعتادت روحه على عذاب سيده ماغون... لا خوف في قلب كلوديوس الذي عرف الموت وعرفه منذ خلق في هذه الحياة... ما أبشع هذه الليلة! فقلقه نادى على الجاثوم ليبرك على جسده ويثبته.. بل إن الأسوء لم يحن بعد... فبعد صراخ يقاتل به جاثومه العنيد.. تراءى له سيف ماغون من العدم.. وهو يخترق قلبه... ليخلف ألما لم تخلفه السياط على جسده..

نهض مفزوعا تتآكله المخاوف، ليجد مانو يقترب منه وقد استعاد بعضا من قوته... فخرج وقد انبلج الصباح والذئب يتبعه نحو ميناء صلامبو أين تشرف حبيبته على بناء أسطول قرطاج..

ابنة ماغون جريئة وواثقة، لا تحسب حسابا للعيون والأقاويل المتطفلة، كان عليها أن لا تنس تقدير الأمور ونزلت من سطح سفينة ملكية إليه عندما رأته، وقد بدا بينهما دون ريب نظرات الحب التي تذيب الحجر.

أخبرها أنه هارب لأجل صديقه، فكيف له أن يفعل هذا الآن؟ أبعدما بدت أول سبل السعادة، سيغلقها هذا الروماني ويهرب بعيدا؟..

لم تنكر وجعها ولا فزعها، كأنها أصبحت تغار من صديقه عليه، كأنها تقارن حبها بحبه، لكن الوفاء أخلاق وليست مشاعر، أخبرها أنه بات لا يؤمن بآلهة روما ولا تانيت ولا بحنبعل آمون، لكنه يؤمن بعينيها وبروحها، يراها كل إيمانه وعقيدته، منذ جاء متمردا وسجينا من مملكة رومولوس لقصر والدها ماغون...

تحولت تلك الكلمات الصادقة من عبد كان يؤمن بالحب والأخلاق، وأميرة قاسية كانت تؤمن بشريعة ماغون الطاغية وبشره المستفحل في الشيطان نفسه... لقصة حب لا تعترف بالنواميس ولا بالأصل ولا بالعبودية.

تبادلا الحب كأنهما يستخرجانه من مناجم بعيدة وعميقة لم يخفيا شيئا عن كل تلك النظرات التي تحدق بهما وسط الذهول، كان لا بد أن يكون من أسرار السماء والأرض.

فلن تستوي سلالة أليسار مع عبيد روما ولا قرطاج ولن يشفع حبهما لطاغية سيقلب السماء عليهما.

كان راحلا كأنه يرحل من الحياة، في حين أنه معها، يرى بعينيه جنة عينيها ويلمس بشرتها ويقبل شفتاها، إنه يراها بصدق، أجمل نساء الأرض، وتراه بصفاء.. رجلا أعظم من كل الملوك.

ولكن... امتدت الأقاويل لأذن ماغون، لقصر أجينور، لا يمكن أن يختلط دم أليسار الملكي منذ قرون، بدم عبيد روما

سينحرون لأجل هذا كل الرقاب التي تتطاول على الطمع في سلالتهم، ويقتلعون جذورهم من الأرض.

لم يحسبا لهذا حسابا، لقد تفشى فيهما الغرام لدرجة العمى، وكتب عليهما ما سيكتبه البشر القساة على قلوب رهيفة ومحبة.

وهي نائمة بعد يوم طويل، أيقظها صوت وصراخ لخدم وعبيد قصرها.. وصوت صهيل الخيل الغاضب من تلك السياط القاسية، يبدد سكون الليل ويكشف عن كثرة من الناس، هل شبت النار في حدائق ماغون؟

نظرت من نافذتها، لتجد حراس عمها الملك يسوقون العبيد وآخرون يربطونهم بالسلاسل، هؤلاء عبيد والدها وعمها أيضا.

في لحظة! دخل عليها والدها وقد كسر عليها باب غرفتها بقدمه التي هي بحجم رضيع، كان مملوءا بالغضب والحقد عيناه تكاد تخرج من رأسه، وقد أصبحت حمراء كالدم.

فزعت... فهل يمكن أن للوشاة يدا في ثورة الغضب هذه؟ لا تفسير غير هذا.. لا بد أنهم نقلوا له خبر كلوديوس وابنته إينولا.. إن كان كذلك، فلا ريب سيقتلها هذه الليلة.

سألها دون مقدمات، عن علاقتها بعبده كلوديوس تجمدت كل الكلمات في لسانها، وما استطاعت الرد عليه لكنه اقترب منها يهمس بحقد يخرج مع كل حرف من ماغون، أن هذا

السكوت دلالة واضحة على جلبها العار لسلالة ملكية صافية حافظت على نقاء دمها لقرون.

لا يمكن أن تفعل حفيدة أليسار ما قيل له عن حب مستحيل في عقله، ولهذا فهو يشكك في نسبها إليه.. إنه يقسم بكل الآلهة... أن دمه النقي والملكي... لا يمكن أن ينجب عاقة لكل تاريخه ومجده الذي صنعه وكان يراه عظيما وبطوليا، إنه يدمر بكلماته أكثر فأكثر علاقته بابنة وحيدة... من دمه وصلبه رغم النكران..

كان كالمجنون أفقده الخمر والصدمة عقله، بات دون وعي منه يذكرها بأنها أحبت أحد عبيده، إنها تشبه والدتها التي هربت بها من حبه غير المشروط ذات يوم إلى روما والدتها لم تهرب مع عشيق كما كان يخبرها دوما... بل هربت من سطوته وقسوته وحبه الذي لا يمت بصلة إلى أي حب... ففي قمة غضبه عليها باح لها عن سره الدفين، صرخ بأعلى صوته يذكرها أنها وريثة لماغون، لكل ملكه وجبروته، ولكنها تريد أن تهب عرشه وتاريخه لعبد من روما.. لعبد كان يجلده بسياطه بذنب أو دون ذنب..

هذه خيانة عظمى، تستحق موت كل العبيد، و لن يرأف في حكمه عليها سيجعل منها عبرة ليذكرها تاريخ قرطاج كله بالعار.

في تلك اللحظات التي كان ماغون يتكلم فيها، كانت إينولا تعزي نفسها بخبر والدتها التي لم تتخل عنها كما كان يخبرها

دوما بذلك، ثم يهرب كلوديوس، لقد أنقذه وفاءه لصديقه من موت محقق.. هكذا كانت تظن ولا تعلم أن ماغون يدبر بليل مجزرة لن تنساها قرطاج أبدا.

لقد أمسكها من يدها من بعد أن بح صوته من الصراخ والعتب... واحمرت عيناه حتى أن ملامح الغضب غيرت من وجهه الغليظ.. إنه يجرها وهي بثياب النوم، نحو الساحة التي ربط فيها عشرات العبيد بالسلاسل، وقد وضع جنوده أخشاب سفن الميناء بينهم وفي دائرة تحيطهم من كل جانب، لا لشيء إلا لأنه سيشعل نارا لن تنطفئ في قلب إينولا للأبد.

انتابها الفزع والرعب لأنها علمت ما سيقدم عليه ماغون السفاح... فقدت الأمل وتسمرت عيناها تنظر إليهم.. تسلل لقلبها المرتعب كل الخوف الذي رأته في عيونهم، ثم توسلت إليه لكنه كان دون رحمة، لا يملك قلب إنسان وحتى الوحوش لن تفعل ما سيفعله ماغون.

عشرات العبيد، الذين يخدمون قصرها ووالدها منذ كانت طفلة، يُحرقون أمامها لأنها أحبت عبدا منهم.

وفي ذروة ألمها، في منظر رهيب ومرعب، استدارت لترى كلوديوس وهو مقيد إلى شجرة كانت خلفها... وجهه المغطى بالدماء قد اختفت معالمه من جراح غائرة عليه، يقدم كآخر العبيد الذين يستحقون في عين ماغون وأجينور الموت بعد

عذاب تقطع فيه الأوصال... وتهمته حب سيدته وابنة ماغون الطاغية.

تبادلا النظرات الأخيرة ويقينا كانت نظرات الوداع، لقد سقطت راكعة لوالدها ركوعها الأخير المليء باليأس... تعده أنها لن تقابله ولن تحبه ولن تفكر فيه طيلة حياتها... لكي يعدل عن هذا الفعل العظيم... كانت تصرخ ووجه كلوديوس يقطر بالدماء، وكان الذئب مانو مليئا كصاحبه بالجراح.. لقد دافع عن صاحب صديقه دون جدوى... وتبعه وهو ممزق أيضا... نحو مصير ونهاية مليئة بالألم... وعندها أمر بحرقه هو وكل العبيد بعده.... لا شيء يصف ذلك الوجع والصراخ والمجزرة وسط نار عظيمة أشعلها ماغون السفاح.... لأن هناك حب لا يعترف بوجوده أصلا.

كانت آخر كلمة نطقها وكأنه يستخرجها من روحه.. فقد هشمت عظام وجهه من ركلات ماغون... قالها بصوت خافت لكنها أدركتها... "سأبقى أحبك..."

.يا للألم! لا يمكن تقدير حزنهما الذي مزق معنى الحياة وانتهى بمجزرة أحرقت المشاعر دون ذنب... وكأن ماغون كان يشعل الحطب وليس البشر.. هؤلاء كانوا عبرة لمن تسول لهم أنفسهم أن يحلموا، ويتمنون سلالة رفيعة لا تليق بها إلا الملوك. الحب.. لا تعرفه العقول المادية والقلوب الفارغة..

صرخات ابنته لا تعني له شيئا... إذْ لا حياة في قلوب الموتى إنهم يفكرون بمشاعر غير موجودة ولا يملكون حتى ذرة منها.

لقد أحرقه أمام عينيها فاحترق قلبها وأملها إلى الأبد... فماتت قبل كلوديوس، تحولت لشيء لا يمكن وصفه خليط من الحزن والوجع.. الذي ينتزع حتى شراييها الرقيقة.

ربما احترقت مشاعرها مثلما احترق حبيبها الآن، لأنها لم تعد تحس بشيء، حتى وماغون يحرق وجهها بسلاسل العبيد المتوهجة بالنار.. لم تشعر بشيء.. لم تصرخ.. حتى أنها لا تبكي... كانت تنظر لتلك العظام المحترقة والتي لم يبق منها سوى الرماد.. في منظر بشع وقبيح ومدمر.. اختفى وجهها الذي كانت تظنه بشعا، والذي كان يحبه بعيوبه... اختفت داخل ذاتها لكي لا ترى ما يفعله ماغون بحياتها المدمرة...

تركها وسط جثث محترقة، وسط حبيب تحول لرماد لوجه محترق، إينولا أصبحت لا تحس بشيء.. حتى بدموعها المالحة التي تحرق جروحها وتلهبها أكثر.. والتي انبثقت من مدامعها دون إرادة..

أصبح قلبها خاويا... تمددت جانب رماد كلوديوس تلمسه برفق، راحت تزحف أكثر لتحتضن الرفات والبقايا صراخها كان داخل أعماقها هذه المرة، لا يسمع لها حس.. بقت هناك لا تعلم قدر الوقت ولا إن كان ما مضى ليل أم نهار... دون ماء دون

طعام، فهي خاوية محترقة... أصبح داخلها رماد أسود... داخل جوفها الآن فؤاد من الفحم والجمر...

القصر أصبح مقبرة مخيفة، وبينما كانت تنتظر الموت وتتمناه في تلك الليلة، أحست بأنفاس دافئة، وبلسان يلعق وجهها المحترق.

إنها عادة مانو، ذلك الذئب يواسي إينولا الوحيدة... كما واسى من قبل ماسين في وادي الجنية بين تلك القفاروالخوف... كان مصابا وضعيفا مثلها، يعوي بحزن يحفر كأنه يريد أن يواري رماد وعظام صديقه المحترقة احتضنته احتاجت أن تحس بأي روح... فكل الأرواح الحية اختفت في مذبحة شنيعة ولأنها جفت من كل شيء... تمنت البكاء.. تمنت ذلك بشدة.. ولكن... حتى الدموع اختفت ورحلت... إن القسوة جبارة ستترك وشومها المتفحمة على الروح وإلى الأبد...

إنها تنظر للمجزرة، غيرتها عميقا ولأبعد الحدود وقضمت فؤادها حتى اختفى من صدرها.... غيرها الألم وأفقدها كل المشاعر... لم تعد تشعر بشيء.. كل الذي في رأسها الآن كان الانتقام... كان لا بد لها أن تنتقم لسعادتها المنهوبة باسم الدم والسلالة... تبرأت منها وانتهى أمر الدم الذي يحاسبونها عليه.... قامت من الرماد الذي يحيطها كالعنقاء.. أخذت جثته ووضعتها في ثوبها.. لفته بعناية وأخذت كل ذكرياتها وركبت حصانها

تحمل عليه مانو المريض، وما تبقى من عظام ورماد حبيبها كلوديوس ورحلت.

اختارت أن تدفنه داخل البحر.. تلك البقايا من الرماد تغلغلت معها أحلامها وحبها الأول والتحمت في رماد كلوديوس عندما كانت تلك الرياح تذرو رماده، أقسمت أن تثأر لحبيبها ولروحها التي ذهبت معه...

تغيرت كثورة جذرية، لامرأة أخرى، لامرأة تصبو نحو الانتقام، والذي تراه الآن وفي هذه اللحظة هدفها الوحيد.

سمع كل عبيد ومرتزقة نوميديا وقرطاج وروما بمذابح ماغون، إنهم ملأى بالغضب، وآخرون بالخوف..

رجعت لميناء صلامبو، صعدت تلك السفينة، ذهبت إلى حيث أثر سهم حبيبها عندما أرسله ليصطاد قلبها، ولم تستطع البكاء، كل الذي استطاعته كان الألم والغضب استدارت إلى من يعملون بأجر زهيد، إلى العبيد الذين يأكلون نصف رغيف في اليوم، وهم عراة في صهد الشمس وصقيع الشتاء.. نادتهم تخاطب فيهم طعم الحرية، قوة العدالة، أخبرتهم أنهم موتى قبل أن يموتوا وأن الحرية إن لم تؤخذ، فلن تؤخذ...

أخبرتهم أنها من سلالة أليسار، ولكنها عبدة مثلهم أيضا شقية وعارية، رغم كل ثيابها وخدمها..

من يريد أن يكون عبدا وميتا قبل أن يموت فليعش في الخفاء ولن يذق طعم الحرية لأنه لا يستحقها...

خاطبتهم فاستجمعوا جأشهم وانظم العشرات لها وقد أخذوا سفن مملكة قرطاج غصبا بقيادة الأميرة التي قررت أن تصبح عبدة مثلهم، في أول ثورة للعبيد تقودها سلالة ملكية ضد قومها.

نوما الجديد

اكتمل نوما الجديد، ابن رومولوس ملك روما الأول الذي شيد على ضفاف نهر التيبر، مملكة ستصبح إمبراطورية تمتد إلى ما وراء البحار.

لقد صدق كذبة إيلينا، مقابل شرابها الأحمر الذي يريح شهوته من اتقاد يعذبه.

إنه رهنها وتحت قدميها، وهي مهووسة بجسده، لا يغريها أي رجل قد تراه، إلا ماسين الذي قلبت حياته رأسا على عقب..

كم يغريها! وكم يحتاجها! كلاهما صندوق كبير داخله صندوق أصغر منه.

يحتويان بعضهما ولا يستطيعان الهرب... تورطا ببعضهما... وتسللت أشياء بين الحب... الشهوة... الإدمان... والهوس... بداخلهما... فمن يستطيع منهما مفارقة من؟ والتخلي على من؟ الإدمان شكل من أشكال التعلق المريض والشهوة غريزة لا يمكن أن تقتلعها وإن كنت تستطيع أن تسكنها.. إلا في حالة ماسين، فهي طفرة خلقت معه وسيطرت على حياته سيطرة كاملة.

وبدأت تلعب إيلينا على حبل يمتد من عاصمة قرطاج إلى غاية روما العظيمة...

سرها الآن لا تعلم به سوى العرّافة باكير، والتي تخدم إيلينا كما تخدم نفسها، وستبقى كذلك إلى أن تموت.. هي.. تخفي سرا آخر كانت تظنه إيلينا مجرد إخلاص وحب ورد للجميل... جميل فعلته هذه الأميرة ذات يوم لها.. أين أنقذتها من حكم محقق بالموت، ولكن باكير تحبها لأنها ابنتها من الملك أجينور... سر يخفيه أجينور نفسه كما تخفيه تلك المشعوذة التي أخلطت طب الأعشاب بتعاويذها وعلومها العريقة والغامضة والتي لها أصل فرعوني وآشوري قديم... في قصة غامضة أخرى... لقد أخفت ذلك السر حتى على نفسها.. خوفا من صورة لأم ساحرة وشديدة الغرابة والقبح... لم تردها أن تعرف شيئا عن حقيقتها... اكتفت بمجرد خادمة مطيعة ومحبة لها حد الموت.

حبيبة والدها، إيلينا أخذت قلبه... كل أولاده الذكور لن يحلون محلها داخل فؤاده... ربما لأنها مدبرة وداهية وكل ما يخرج من عقلها ينجح وكأنه السحر... منذ تدخلت في سياسة مملكتها إلا وانتصرت أفكارها وآراؤها... لم تشر عليه بشيء إلا وخرج بانتصار آخر منه.... فباتت عقله.. قلبه.. دون منازع احتلت العرش قبل أن تجلس عليه.... أغاظ إخوتها هذا وتملكتهم الغيرة والحسد... وأكثر الأذى هو أذى القريب الذي يشاطرك الطعام والبيت وحتى الرحم...

تدخل إيلينا إلى قصرها، وهي تمشي في طرقاته وأروقته.. مع حاشيتها وحراسها... تأخذ اللب والعقل... كم هي جميلة! لها هالة من السحر والفتنة... كل العز والنعم التي تربت عليها... لم تفسد عقلها بل كانت مطلعة ومفكرة وند لجدتها أليسار.... إنها تصل لوالدها الملك، تقبل يديه ويقبل يديها يراها بنظرة انبهار لعقلها البارع، وخططها التي لا تفشل أبدا..

كان حنبعل تو، يموت غيظا وغيرة منها، هي.. تعلم جيدا مقدار كرهه لها.. لكنها تجاريه وتحاول أن تتحاشاه ورغم ذلك تغيضه.

كلما كان يراقبها، كلما انفلتت منه... إنه فأرها الصغير الذي تلعب به كلما أحبت ذلك..

والآن... وهي تهمس في أذن الملك، كان هو يتحرق لقراءة الشفاه التي تغطيها عنه بيدها الناعمة والساحرة، فكيف سيعرف سرهما، إنهما منسجمان يبتسمان لنجاح مكيدة أخرى من مكائدها، وهذا لا يعجبه أبدا... بل إنه مقهور منها ثم منه.

هناك شيء يدور في الخفاء.. إنه يعلم ذلك ومتأكد منه.... وهو خارج عن الخط، تدور أفكاره حول العرش الذي سيمنحه أجينور لإيلينا وهذا في منطقه يستحيل أن يكون... ولن يكون مادام على قيد الحياة.. فكل شيء يناديها للعرش.. عرش قرطاج كان دون ريب ملك لإيلينا الداهية والساحرة.. وبدأ شيطان

حنبعل تو يفكر في مأدبة أخيرة لوالده... لأنه سيقطع رأس الأفعى التي تفكر في عرش للنساء.

ماسين يعيش الآن في غرفة من غرف إيلينا السرية داخل قصر قرطاج، وقريبا سيجهز عرسها لتذهب عروسا لماركوس.

في رأسها خطة تتسلسل أحداثها بشكل مثير ومدروس فكرة فكرة.. تعرف كل خطوة تخطوها وتضع بدائلها في هندسة عبقرية داخل رأسها..

عندما رأى الملك أجينور، ماسين بذلك التناسق والقوة الجسدية، وبتلك النظرة الواثقة، لم يكن لديه شك أنه من سلالة ملكية، كأنه يظن أن الاكتمال هو خاصة للملوك والنبلاء وحدهم دون العامة والعبيد.

رأى صنيعة ابنته إيلينا، التي تعثر دائما على مفاتيحه الذهبية.

إنه مبهور به، سعيد بما وجده، لأنه سيفتح أمام قرطاج طريقا نحو مملكة وحضارة تمتد أصولها من طروادة إلى نهر التيبر.

جاء عرس قرطاجي لأميرة فاتنة، استقبلها الملك روموولوس وابنه ماركوس وهي آتية في أسطول بحري من مئة سفينة نقلت كل قرطاج وأبهرت فيها روما كلها، كانت جميلة وباهرة.

اختطفت أنظار الجميع، وكان ماسين متنكرا مع جنودها... ذاهب إلى مكان لم يكن حتى يفكر فيه، ولم يحلم به، كل همه كان شراب باكير الأحمر، الذي يسيطر على شهوته المجنونة.

بلاؤه يكبر يوما بعد يوم، لقد تورط في عقل هذه السيدة ولا يعلم أي قدر سينجيه منها.

كم جسد إيلينا جميل! كم هي عروس جميلة تأخذ لب أي رجل يراها... وكم هي مخططة وداهية.... ولكنه متعلق بذلك المخدر الذي يهدئ من شهوته، ويجعله يهدأ ليصبح بمزاج يحبه..

كان ينظر لها ويفكر في مآله الذي جعله عبدا بين يديها كل شيء كان يدور حول الغريزة.. حول شهوته المتقدة التي حولته لإنسان تتحكم فيه... ويتحكم فيه من يتحكم فيها...

سيجن... لأنها حولته لشخصية أخرى، اسمها نوما... ونوما من؟ هو ابن رومولوس ملك روما... إما سترفعه لمصاف الملوك أو لأشلاء تأكلها سباعهم..

لقد أملت عليه ما يفعله بالوقت والزمان والمكان، هي تعلم أن الكذبة المتقنة يجب أن تستمد من الحقيقة وحقيقة فقد ماسين لذاكرته، جعلت كل شيء يبدو حقيقيا لأبعد الحدود.

كانت طقوس الزواج الرومانية، تنتهي باستعراض جسدي بين فرسان العريس والعروس، كأنه تفاخر سيبقى مذكور لأجيال عديدة.... تقليد سيذكر أبناء العروسين بانتصار للأخوال

أو الأعمام... كان الجميع منغمسا في هذا العرس الملكي الذي تفننت قرطاج وروما في صنعه.. بينما كانت العروس منغمسة في خطتها التي تريدها أن تنجح بأي ثمن كان... تلك الداهية تعلم سر الوشم، وخبأت كل شيء لوقته المعلوم لماسين، لهذا قد غطت جسده بلباس ملكي جميل... وراحت تتغزل في بطولاته أمام عريسها.. إنها تدفع غروره الذي تعلمه عنه خفية لنزال سيغير التاريخ وشيئا فشيئا.... لاحظ حنبعل تو نظراتها لذاك الغريب واهتمامها بجندي قد رآه لأول مرة في حياته... إنه يشم رائحة خديعة تطبخها هذه الأخت مع والده... كلما مد نظره للملك.. تأكد من ذلك وأنه متورط في خيط من خيوط ابنته العزيزة.. كل شيء كان يراه. أمامه بوضوح.. من تلك البسمة الماكرة... إلى غاية مديحه المبالغ لهذا الغريب في أي حديث خاص أو عام عن الحرب والمبارزة والرمي بالنبال... فمتى كان هذا الجندي سليل الأبطال؟...

غار ماركوس من نظرات عروسه لماسين، فقد كان مولعا بها، كلما تكلمت عن بطولات نباله، أخبرها أنه يفعل ذلك بطريقة خارقة.. حتى أنه قد أصاب أحد الآلهة بأحد سهامه... ويرد قومه عليه بموافقة وبسمات وقهقهات مزيفة ومصطنعة.. أخبرته هي.. وفي هدوء تام، أن ذلك الجندي الغريب، قد أصاب اثنين من الآلهة بنبرة ساخرة منها فجن جنونه... وقف على فوره، يدعوه لمبارزة بالسهام ليسترد كبرياءه من نظرات حبيبته

إيلينا ومسامع الملوك والنبلاء ووجهاء قرطاج وروما... وقفا على خط الرماية وكانوا جميعا يتمعنون في وسامة وجمال هذا الفارع الطول الذي كانوا يظنونه من قرطاج، وأمام مرأى الجميع كان يجب وضع رهانهما قبل المبارزة... وضع ماركوس بكبرياء وانتقام شرط خدمته طيلة حياته إن فاز، أما رهان ماسين فقد وضعته العروس حسب أعرافهم وكان أن يأخذ سيف الملك رومولوس... لقد ورطت الابن وولي العهد في رهان يقلب كل شيء ضد ماركوس إن خسر رهانه، ويعيد أشياء كثيرة لمسار تخططه هذه القرطاجية والتي جلبوها لجمالها وقوة مملكتها، لكنها جلبت عليهم قصة لن تخطر على عقل أي واحد فيهم... تلك الأعراف التي يصعب أن يخرج منها المهزوم بخير فهي ليست عاداتهم وتقاليدهم فقط، بل هي مفاخرة وإنذار في قالب ممازحة، عن قوة كل طرف استظهار للسيطرة والأفضلية وصفاء السلالة الملكية بين ملوك روما الممتدة أصولهم لجبابرة طروادة وبين ملوك قرطاج، والمغلوب سترافقه وصمة عار خفية لأحفاد أحفاده... إنها الختام الذي يعكر صفو المنهزمين ويزيد من نشوة المنتصرين، وهي الخطر والشرارة التي سيلعب بها الشيطان والأعداء، في ذروة غليان الدماء فرحا أو غضبا إنها لعبة تبدأ بالابتسام وتنتهي غالبا بالحروب والموت.

لا يجب أن يوضع رهان تقدر عليه العامة، هم يتخيلون أنهم أنصاف آلهة، ويستطيعون أن يقتلعوا النجوم ويبخرون

البحار ويفتحون أبواب السماء، لهذا... ستكون رهاناتهم مربكة وقوية وأخرى خاطفة أو مذلة... لا تكتمل تلك الأعراس إلا بعاداتهم تلك... وإلا لأصبحت المنازلة دون روح... والسيف المرهون على نزال لا يعلمون أنه محسوم لصالح هذا الرجل الوسيم، قدره مثل قدر الزوجة إن أخذت من رجلها وزوجها أهين وأصبح دون رجولة، فكيف بملك مثل رومولوس... أما هدف السهام فكان يجب على ملك روما أن يحدده، فما المقابل لسيفه، سوى حياة أجمل أميرة في كل الممالك، أمرها أن تقترب منه، خفق قلب أجينور، إن ابنته هذه، هي روحه التي يعيش بها، وابتهج حنبعل تو، فهو يدرك أن هذا سيف ملك روما ستدفع إيلينا ثمنا له، وقفت من عرشها الذي زينته بالجلوس عليه، وقبلت يد الملك ليقبل جبينها ويحتضنها نصف احتضان بذراع واحدة، أما الأخرى فقد كان يلمس أذنها المزينة بقرط ذهبي مستدير، أمسك شحمة أذنها وقال بصوت مسموع:

"لا يمكن أن يكون الرهان القوي إلا لهدف أقوى منه.. إذن فهدف سهامكما هو وسط هذا القرط الذهبي والمستدير."

وهذا يعني، أن مكان هدف السهم هو نقطة فاصلة بين حياة أو موت هذه العروس، سيفه لا يوضع كرهان.. وإن وضع فسيكون بمقابل روح غالية على القلوب، فكان على رامي النبال أن يكون من أنصاف آلهتهم، يمتلك قوى خارقة، أو سيقطع السهم شريان رقبة إيلينا... أو يشوه وجنتها التي تشبه

بتلات الياسمين... حرب مبطنة ابتدأتها حفيدة أليسار الداهية وأكملها رومولوس الذي أرضعته الذئبة لوبا وكان من سلالة فرسان طروادة... لكن ماركوس يهيم حبا في إيلينا الشقراء يخاف عليها من ظلها ومن الهواء وحتى من قبلاته، كل مجونه بالنساء اختفى يوم التقاها وأسقطته في حبها دون ريب.. تردد خوفا من أن يصيب سهمه وجهها الرقيق، أو رقبتها الرخامية فرمقه رومولوس بنظرة كادت ترديه ميتا... همس غاضبا في أذن ماسين، يحذره من لمس شعرة من شعرها الذهبي، وارتعب قلب والدها أجينور، خوفا على قرة عينيه، أما حنبعل تو فقد توسل لكل آلهتهم وآلهة روما ونوميديا أن تصيبها أحد النبال فتجني على نفسها دون عناء منه.

سيف الملك رهان قد يثير حربا... وروح الأميرة القرطاجية التي أتتهم عروسا سيثير حربا أخرى، إنه رهان مجنون لن تعرف خطره، وحل خطره إلا تلك الجميلة.

وابتدأ النزال، وقفت إيلينا وقلب والدها يكاد ينفطر خوفا عليها، لكنها قبلت يده تطمئنه أنها في حماية رومولوس والذي كان يسمعها مغتاظا، أما المتراهنان فقد كان عليهما أن يقفا وسط خطان متوازيان، يتخذا فيه وضعية الإطلاق بعد أن يسمعا ضربة الطبل القوية والثالثة.. استعدا... كان على كل واحد منهما أن يسددا رأس سهميهما نحو وسط قرط أذنيها المستدير، نظرت إيلينا لعيون عريسها ماركوس، ثم انتبهت

لارتباك وارتعاش يده كان جليا أنه سيقضي عليها بسهمه دون ريب، ونظرت إلى حبيبها ماسين لتجد منفذا للأمان داخل قلبها... كان عليها أن تخاطر، لا تبدأ الأشياء القيمة والتي نحبها دون ذلك الحياة لا تقدم لنا النجاح على أطباق من ذهب، وقد تكون الحياة ثمنا نهائيا حتى قبل أن نرى نجاحنا فيها...

بدأت تلك الضربات الخافتة والمتناغمة في البداية للطبول والتي تسرع بعدها في شكل حماسي، لتزامن دقات قلوب الجميع.. الملوك والعبيد على حد السواء، وحتى الأصحاب والأعداء، وها قد أتت ضربات الطبل الثلاث... ضربت الأولى ثم الثانية لتتسارع نبضات كل قلوب الحاضرين وتتوسع وتثبت أحداقهم نحو هذه العروس التي تقف بين الموت والحياة... وعندما أعلن عن ضربة الطبل الثالثة التي تحرر نبال ماسين وماركوس، أغمضت إيلينا عينيها، بعد أن ثبتت نفسها باستقامة على لوح خشبي كبير، وتركت جسدها مستسلم لقدرها في لحظة موت أو مجد.

وضعت رؤوس رقيقة على سهامهم، فسمعت صوت السهم على جهة أذنها اليسرى كانت تعلم أنها جهة ماسين جهة قلبها الذي يسكن فيه، أما ماركوس، فقد أصاب سهمه أحد الحضور ليفقأ فيها عينه... انتفض الملك رومولوس، تمسك بسيفه الذي كانت حافته تحكي أسطورة لا تعرف كل

حقائقها... تمسك برباطة جأشه، رغم تلك الملامح الثائرة والخائبة من ابنه ماركوس...

خطتها في الحقيقة تبدأ من هذه اللحظة، وسط ثورة الغضب والخيبة، تبني أملا داخل الظلام، لتظهر أسسه عندما تريد...

نجح ذلك النوميدي، الذي حولته حفيدة أليسار أمام كل قرطاج وروما لرام لا يخطئ سهمه أبدا، ابتسمت له ابتسامة انتصار بكل فخر، ولأن هذا الجندي الذي ترعاه يدها يعلم كل خطتها، فقد نادت عليه، وكان الجميع يظن أن سيأخذ سيف الملك روموولوس، والذي لم يهن عليه أن يسلمه بيديه لغريب لا يعرفه، هزم ولده الوحيد وولي عرشه الذي قتل لأجله أخاه ريموس.

لكن ماسين نزع نباله ورمحه وثيابه وركع لملك روما مقدما له نفسه وسلاحه ليكون تحت خدمته.... لقد أنقذ كبرياء روموولوس، في شكل جعله بطلا في عينيه.... ارتخت ملامحه وانسلت علامات الغيظ من وجهه، وانتهت في لحظة كل احتمالات حنبعل تو التي كان يتأملها في وسط تلك الأحداث... وبينما كان ماسين يقف ويستدير لينزل من أمام عرش الملك وهو عاري الصدر، إذ بوشم الذئب الذي وشمته العرافة باكير يظهر للملك فتتجمد قسمات وجهه..

فهذا وشم نوما... وشم ابنه البكر الذي بحث عنه في الصحاري والجبال والحقول والغابات والأرض والسماء...

إنه أمامه وبين يديه... وقد ركع مسلما له نفسه كخادم له.... إنه في حلم وربما يظن أنه في يقظة...

كانت الأميرة عروس ابنه ماركوس تراقبه.. الجميع لم يكن يعلم ما تخطط له، وما أقدمت عليه، جلبت معها خطة وتجرأت على وضعها أمام رومولوس.. لعبت على أمنياته وعلى أبوته واحتياجه لذرية تشبه أجداده الطراودة، وكأن السماء تساعدها، لتضع أمامها ماسين الذي يشبه ما يتمناه بالضبط... مكتمل للعيون... قوي.. قناص... وسيم.. لقد أحب الملك أن يصدق ما تراه عيناه ولا يمكن له إلا أن يؤمن بهذا النصر الجديد.

وقف من على عرشه.. نادى على ماسين بنوما... استدار إليه، فهذا الاسم قد لقنته إياه إيلينا، وطبعته في عقله حتى صدقه.

سال العرق من جبين ملك روما، والدموع، وأيضا بعض الكلمات التي سمعها كل الحضور بذهول:

"إنه ابني... هذا ولدي نوما، إنه هو وشم الذئبة لوبا على كتفه علامة بائنة كشمس السماء..."

وقع هذه الكلمات على ماركوس وحنبعل تو، كوقع حجارة من الجحيم على رأسيهما، لو حق هذا لانتهى عرش ماركوس

الذي انتظره زهاء الأربعين عام، وسيهدى لإيلينا حليفا قويا يعزز موقعها بين قرطاجة وروما..

والجميع بات مذهولا، إلا عيون حفيدة أليسار الماكرة المليئة بالبريق والعبقرية، والتي تخطط فتمسك نقاط الضعف لتحولها لأرضها التي تلعب عليها.

كان ماسين واقفا ينظر لوالده المزعوم، وهو يلمس وشمه ويقبله، إنه يحتضنه بحرارة... وبعدها يفلته وعندما يتمعن في تفاصيله، يتهلل وجهه ومن ثم يحتضنه أكثر، وفي غمرة تلك المشاعر صعد ماركوس، يحاول أن يفهم الذي يراه فإذا بوالده يشق ثياب عرسه، ويمسكه من ذراعيه بقوة، ليريهم وشما يماثل وشم ماسين، وشم الذئبة لوبا كابيتولينا ثم يصرخ بجنون... بأنه وجد ولده البكر نوما.. بأن ولي عرشه قد أرسلته آلهة روما إليه...

سمع ماركوس ما لا يتخيله، بدأ كل شيء ينهار بسرعة داخل عقله وبصورة مرهقة ومزعجة.. عرشه.. صورته.. بطولاته

من ولي عرش لمملكة والده، لشيء نكرة أعلنها الملك أمام الجميع، كأنه يريد التخلص منه بل... قد تخلص منه ورماه نحو الهامش.. لا بد أنه كان يكره أن يكون ولده وولي عرشه...

لقد أحاط الحضور من الأعيان والنخبة الملك رومولوس وابنه نوما الجديد، يهنئونه ويتملقون واجهم غير المرغوب، في حادثة كانت تربط ألسنتهم فلا يتفوهون إلا بسعادة رومولوس.

قذف ماركوس خارج الدائرة الملكية، وتحول عرشه وعرسه لشيء منسي، لا يليق الفرح به أمام فرحة الملك العظمى بإيجاد ولده الذي يحمل كل ما تمناه في ذريته طيلة حياته.

لم يحتويه، سوى حنبعل تو، الذي طلب منه أن يكون صبورا ويهنئ والده وأخاه، ثم يلتقيان بعدها لبحث الأمور.

ماركوس بقدر استهتاره وقلة عقله، إلا أنه أحس بالخطر يحيط كل حياته، التي دمرت في لحظة، ظن أنها السعادة المطلقة.

صعد على مضض، اتبع نصيحة أخو عروسه، التي تبدو سعيدة بنوما أكثر من سعادتها به..

اشتعل صدره حقدا وغيرة، لكنه كابر حتى تمضي ليلة البؤس هذه، التي ضيعت كل شيء قد بناه.

أراد أن يأخذ عروسه، لكنها رفضت واستمرت في احتفالات أقامها رومولوس قرر أن تبقى لشهر كامل في كل أرجاء روما.

مالطا أرخبيل العبيد

ما معنى أن تعيش دون قلب؟ والقلب مقر الروح وسكناه.

إن الأفئدة تسمع وتعقل وأيضا تبصر، فماذا لو اغتالوه لك؟ وأصبحت خاويا وهيكلا من اللحم والعظام، تحركك دوافع الغريزة، والتي تصبح هي أيضا دون طعم ودون حاجة.

وما معنى أن تكون لك عشيرة؟ أليست لتعطيك يدا عندما تعجز يداك، وأن تعطيك قوة عندما تهزم قواك وتهرم عضدك؟... فما بال هؤلاء؟ عندما يكونون هم، من يفقدونك كل شيء، ثم ينظرون إليك، يتمعنون في عجزك وأنت طريح..

صدر إينولا، حزين وربما لا.. فكل المشاعر غابت وتركت لمعالم الانتقام كل المكان، وبين خفقاته الخاوية كل النصيب حياتها أصبحت جانحة، ومخيلتها وذكرياتها مليئة بالرماد والجثث.

تلك السفينة، المليئة بالعبيد، رست على جزيرة تكاد تكون مهجورة، في وسط البحر، لا زرع فيها ولا ماء، قفار يحيطه الرمل، مثل قفار قلبها وقلب بحارتها الذين تمردوا على الفقر إلى المجهول..

حجبت حروق وجهها، التي طبعتها تلك السلسلة الحديدية فأذابت بيد والدها بشرتها، ولبست لباس البحارة، فكانت رجلا في جسد امرأة.

كأنها تقضي على إينولا التي تبقى بعض من رمادها داخلها إنها تمحو روحها القديمة، لتستبدلها بروح جديدة ثائرة.. روح منتقمة غاضبة لا تبصر ما أبصرته ابنة ماغون القاسية.

باتت أكثر قسوة.. أكثر صمتا... أكثر رجولة مما كانت عليه.

عندما نزلوا من سفينتهم، كانوا زهاء السبعين معظمهم مرضى، تحس أن أجسادهم مثل القش، هزيلة نحيلة... متشبعة بالوجع والعذاب.. فهل بهؤلاء ستنشئ تمردا وثورة؟ إنهم أنصاف مساكين.. حتى أن بعضهم يملكون أيادي مبتورة ثم أن أجسادهم تخبرك بعذابهم وقهرهم، ولكنهم اختاروا شيئا ما.. وقفوا ضد العتو والظلم، واختاروا التمرد على كل شيء وإن كان هزيمة مسبقة.

لا راحة لهم، فهم لا يعرفون معنى السكون، اعتادوا على العمل دون توقف، حتى النوم، كان يقسم بتقشف على أجساد أولئك المساكين...

لكنهم ثائرون متمردون يعتزمون الانتقام من الذين صنعوا لهم عجزهم وبترهم وبؤسهم..

خاطبتهم كأنها ستقلب على مَلِك قرطاج ووزير بحريته ماغون، حياتهم إلى بؤس أكثر من بؤس عبيدهم، ثم أنهم سيجعلون من هذه الجزيرة أرضا لكل العبيد والمرتزقة الذين تؤخذ حقوقهم دون وجه حق، ليستردوا كل ذلك مثلما أخذ منهم.

أصبحت تعترض السفن الصغيرة، وتأخذ كل ما تجده ثم تخطب في العبيد والمرتزقة الذين على متنها، فيتمردون على ملوكهم وملاّكهم، لقد أصبحت تمتلك في ظرف بعض الشهور أسطول من السفن التجارية الصغيرة، وانظم إليها مئات من العبيد، الذين يمتلئون غضبا وحقدا والكثير من قصص الظلم المحفورة داخلهم منذ أمد بعيد.

امتلكت ابنة ماغون جيشا غاضبا، يمنع تحرك السفن التجارية إلا بإذنها أو بضرائبها التي يدفعونها لها ولعبيدها الثائرة.

انصهرت تلك المرأة الغاضبة، في ملامح رجل غاضب غيرت اسمها لكلوديوس.. كأنها تلبست كل ألمه واحتفظت بذكراه حية لقد تقمصت حبيبها لتنتقم بيده وبروحه من كل من فرق بينهما في هذه الحياة.... أصبحت قرصانا لا رحمة في قلبه على أعدائه هائجة مثل موج هذا البحر..

إنها أقوى من ذي قبل، شرسة جدا، عقلها وكلماتها وخطاباتها الحماسية إليهم، ضخمت أحلامهم في حرية وأرض ووطن يجمعهم دون سلطة ظالمة... أصبحوا قراصنة كلوديوس، قُطَّاع البحار الغاضبون.. إنه جيش ابنة ماغون الطاغية، الذي أصبح يحتاج لترتيب اقتصاد وهيكلة جديدة فقد بلغ عشرين ألف عبد برداء قرصان، أفواج تحج إليها وتتضخم أعدادها كل يوم، نتيجة لانضمام العبيد الذي

يحلمون بوطن جديد، تتساوى فيه الحقوق والواجبات دون ظلم وعذاب.

صنعت دولة جديدة منهم، وضعت البذور في الأرض وزرعت الأشجار، جعلت من الحنطة والخضر والفاكهة موردا أساسيا للغذاء، والصيد البحري مصدرا للحوم.

لكن العشرون ألف أصبحوا زهاء الثلاثين ألف، وكان عليها أن تجد أرضا على البحر.

أصبحت مالطا، أرخبيل العبيد، الذي هيأت عليه جيشها كأكثر الجيوش غضبا في كل الممالك.

وبدأت تنمو وتتحول من بعض المنكسرين، لعشرات الآلاف من الغضبة والحقدة، الذين يفتشون عن إثبات حقهم في الإنسانية، وستصبح أرخبيل العبيد قوة قاهرة ترعب سلالة أليسار نفسها، بل إنها حفيدتها التي تمردت عليهم، وصنعت لهم جيشا لم يحسبوا له حسبانا.

كم دربها ماغون، على اختراق الصعاب، وخلق انتصارا في أوج ذروة الفشل، علمها بسياطه وتعذيبه، أن العذاب ألم والهزيمة ألم وعذاب وعار... وعلمها كلوديوس أنها أنثى تفيض جمالا من القبح، رأى داخلها نفسها المختبئة، رأى كل أحلامها الجميلة بين ملامحها ولباس الرجال التي كانت ترتديه، وأراها جوهرها الذي لن يكشفه سوى العشق، ثم بعد ذلك دمره والدها وأشعل نار قلبها إلى الأبد.

كل ليلة كانت ترى كلوديوس، وبيتها وحتى أطفالها منه ثم يحترق كل شيء بيدي والدها الطاغية... تتألم.. وكيف لا تتوجع؟ وقد أبيدت آمالها وأحلامها في ليلة مليئة بالنار والرماد.

إنها تخطط، لأن تغير التاريخ، وتجعل للعبيد صوتا يسمع في أرجاء العالم القديم، كأنها تقول أن كلوديوس العبد يستطيع أن يكون ملكا بل ويقدر أن يقهر ملككم مثلما تفعلون أنتم... وضعت نفسها ملكة عليهم، فأنصتوا لها واستمعوا لصوت القوة والغضب.

ومع الوقت اندثرت أنوثتها لتصبح القرصان كلوديوس من كان يتصور بعد هذا الجسد والملامح الرجولية، أنها أنثى في ملامح رجل؟ من كان سيدقق في وجه تظهر منه نصف عيونه وجسد قوي، غطت عليه كل معالم الأنوثة.... اندثرت إينولا ليلة احترق حبيبها كلاوديوس... وبعثت روحه الغاضبة مع روحها..

ومرت الشهور... شكلت تهديدا حقيقيا لكل السفن التي تعبر على البحر الأبيض المتوسط وبَنَتْ على أرخبيل مالطا مملكة العبيد، وهددت حضارة لها مئة عام من الوجود.

أصبحت قرطاج قلقة، أثر جيش العبيد على اقتصادها واستقرارها، وجعل من المرتزقة تطالب بأجور خيالية، ثم طالب الجنود بذلك أيضا.

فبات على الملك أجينور، وضع حل في أقرب وقت، وإلا ستنهار قرطاج...

لا أحد يعلم، من خلف هؤلاء، من يحرض العبيد على التمرد؟ تجارة العبيد بذاتها أصبحت طي النسيان، ولم تفلح أي عقوبات في ردعهم والتصدي لهم.

حمل حنبعل تو نفسه شخصيا، وطالب بمقابلة ملك العبيد القبطان كلوديوس..

عندما حضر رسول قرطاج، يخبر إينولا بالرغبة في المفاوضة معها، وعرفت بأن ابن عمها حنبعل تو هو من سيحضر شخصيا لملاقاتها، طلبت أن يحضر ماغون بنفسه، وإلا لن تفاوض أحدا.

ماغون.. المجنون بالعظمة والسلطة، المليء بالغرور والتكبر على كل شيء موجود أمامه، لن يفاوض العبيد ولو كان هذا آخر يوم في حياته.

طلبها كان شبه مستحيل، وهي تعلم ذلك ولكنها لن تيأس في جلبه لعقر عرين العبيد.

تتالت خسارة السفن التي تسافر للتجارة من قرطاج نحو الشمال، وجن جنون الملك أجينور، فملك العبيد يرفض الهدايا، والمفاوضة وحتى الضرائب، بل أصبحت تدمر سفنهم وترسلها عائدة لميناء صلامبو.. إنها تستفز غرورهم وتعرف كيف تفعل ذلك. لأنها ابنتهم التي تعرف كل خباياهم.

أصبحت بطلا في نظر العبيد، الفارس الملثم، الذي يطهر الأرض من الظلم، إنها مثل أمل عظيم تربص واستولى على قلوبهم أجمعين، غامضة جدا في أعين الأعداء... واضحة جدا في أعين كل هؤلاء المقهورين... لا شيء تستطيع أن تعرفه عنها بعض الحزن فقط الذي يظهر متسللا بين نظراتها عندما تنظر إلى البحر، غير أنها كانت ترى كلوديوس يكلمها بين الموج... كم تحب تلك اللحظات، التي تنسى فيها الحرب والمفاوضات والبشر والغموض، وتتذكر قبلات كلوديوس، أحضانه المليئة بحنان الكون، تحب أن تتذكر اسمها عندما ينطقه، كانت كأنها تسمعه لأول مرة، مليء بالحب.. دافئ لا يمكن أن يكون جميلا إلا عندما كان يقوله هو... كم أحبته! ثم أحرقه والدها.. ودفنت هي ما تبقى من رماده في هذا البحر...

آخر هذه الأفكار، يدمرها كل مرة بشكل مختلف، إنها تريد أن تموت لتجده، ولكنها تنظر لعيون العبيد أولئك يرونها كلوديوس، لكأنها تحييه وتجعله بطلا لا يمكن قهره... ذلك عزاؤها الوحيد، الذي ستفعل لأجله كل شيء.

أين أنت يا تنارا؟..

تنعم روما الآن بفرحة ملكها رومولوس، شهر كامل لم تتوقف فيه الاحتفالات أبدا، كان في كل يوم وليلة منه ولائم ورقص ومسرح ومبارزات، معالم السعادة بهذا الغريب العائد لونت كل روما... لقد نسي عرس ماركوس وإيلينا أمام عظمة عودة ولي عرشه ابنه البكر نوما..

إيلينا تشتعل من الغيرة، فنوما أحاطه رومولوس بما تشتهي نفسه، كأنه يعوضه بنعيمه ومجونه، جميلات روما كلهن يقعن في غرامه واحدة تلو الأخرى، هوس وجنون بهذا الفحل القادم من أرض قرطاج...

عقارها الأحمر، شراب إيلينا الذي كانت تسيطر عليه به لم يستطع أن يتنساه عندما أصبح وليا للعرش، دونه سيقع فريسة لعذاب وداء لا حل له... ولكن والده المزعوم أغطسه في أعماق الشهوات والغرائز... باتت قوته الجنسية محور الحديث، بين نساء روما حتى أنهم ظنوه إله الجنس والرجولة فزاد هذا من تعلق والده به، إنه يظن أنه أنجب كائنا أسطوريا وآلهة من آلهة طروادة.

لقد سرقته الأضواء منها، وهي التي خلقتها له، كل تفكيرها اضطرابها أحلامها كوابيسها متعلقة به... هي تعشقه... هو.. لا يذكر غير ذكريات تنارا.

كلما كان مع إحداهن، لم يتمتع بشيء، كان يشعر أن شيئا ما قد تكرر، والذي كان يتكرر هي مواقف عشق نساء قرية آريس، عندما جنى على نفسه، وأصبح كل رجال قريته يسعون لاقتلاع رأسه من جسده الأسطوري.

لم يكن شيء يرضيه، لا الأضواء ولا النساء ولا حتى تلك الألوهية التي يريدون إلصاقها به.

الكذب.. النفاق... تلك الشهوة التي لا حد لها، والتي تؤذيه بدل أن تجعله سعيدا...

لا جمال إيلينا يغريه، ولا قوة السلطة تقنعه، ولا أجسادهن تفي بالغرض.. إنه في الجحيم والذي لا يراه إلا هو... إنه في الجحيم وهم في جنته التي تنشب فيها حربه.

بعض فقط من النور، بعض من الحياة، يعيش في ذكرياته معها، مع ذلك الإحساس الذي يشعر به بين كلماتها العميقة إنها تتناقض مع رغباته وملذاته وحتى ما يحب وحتى ما يتمنى فهل هذا هو سر تعلق تفكيره بها؟ إنه يراها بعين العاشق رغم تشوهات بشعة ما عادت تنغص عليه صورتها... بات يراها أجمل منهن.. عزيزة على قلبه... يشتاق لها بشدة، ويندم أنه تركها ترحل بذلك الكسر الذي جعله بين فؤادها...

ود لو يهرب، ويترك لهم كل شيء، فقط ليكون معها ولو ليوم واحد، حتى يرتاح من كل هذا البلاء والجهد والقلق..

أين أنت يا تنارا؟ أين مكانك الذي لا يعرفه ماسين، حتى يرحل من الملك إليك.

إيلينا الجميلة، تعيش مع أمير يعشقها، يعشق رائحة فمها شعرها وجهها جسدها المنحوت، يشتاقها وهو معها يريد أن يلمسها كلما تنفست، ولكنها مشغولة بأشياء أخرى..

قلبها عبد مملوك لسيده ماسين، حبه شغفها وتغلغل في كل مسامة منها، هي لا ترى غيره في هذا الوجود.

كلما نام معها أحسها جامدة كتمثال رومولوس، عيناها لا تحب النظر إليه، إنها مملوءة بعشق آخر...

كان متأكدا من ذلك، ولكن... لا حل له لأن عشقه أكبر من غيرته.

في ذروة انشغالهم بمخططات المملكة والسلطة والحكم ذهبت إليه تعاتبه، ذهبت لنوما تكلمه.. تلومه على تركها كأنها لا شيء، اقتربت منه فالتصقت بجسده، شعرت بالعطش والحنين والرغبة، ولكنه بادلها بالجفاء..

لقد سئم من كل نساء الأرض، لم يعد شيء يغريه فيهن لأنه لم يجد ما يروي ظمأه أبدا.. هناك شيء عميق تغير داخله... أصبح متجذرا في كيانه العَطِشِ للملذات، جعله كئيبا ولكنه أراد الخروج من كل هذا... تلك اللقاءات الجسدية العطشى كانت دون قانون وزادت في غيها... فعافها قلبه... ثم أن حب

تنارا يكبر ويكبر وخيالها لا يفارقه... إن الحب كلمة الله العليا... في قلوبنا الغافلة عن محبته.

لقد تعب... ولكنها تطالبه بحق غرامها ورغبتها فيه، إنها متشبثة بجسده كأنه واجب تمليه عليه..

تلك المطالبة باندماج تطفىء به ولعها... لم يكن يرغب هو فيه.. كلما رفضها جُنَّت وتشبثت بحقها المزعوم أكثر... لم يتمالك نفسه فصفعها غاضبا، ترك ذلك الجمال والجسد المنحوت يسقط على الأرض.. فيتكسر... كبرياؤها تستيقظ بجبروت.. أمسكت سكين الفاكهة وأرادت أن تغرسه في قلبها لعل ذلك يحسم معركتها الفاشلة معه.... لقد مزق هذا فؤادها العزيز... فؤادها الذي اعتاد الدلال ها قد جافاه ماسين.

لكنه احتضنها فأسقطت سكينها تذوب بين ذراعيه، فما أضعف العشاق! وما أتفه أعذار عودتهم! إنهم يتحججون لكي يعودوا بذكرى تالفة.. أو بوخزة في القلب..

أخبرها بتعبه، بلوعة شوقه، بكرهه لهذا البلاط الملكي المليء بالنفاق والمؤامرات والكذب، إنه يشتاق لتلك الغابات التي يسكنها مثل أحد ذئابها، إنه لا يريد هذا اللباس الحريري، فقد اعتاد على جسده الذي يغطى منه سوى سوأته... إنه مسجون في سجن صنعته له فأحس بالضيق والسأم...

أين وعدك يا إيلينا؟ كان يسألها عن عهدها القديم الذي قطعته ولم تبره، لقد أخبرت ماسين، بأنها سترجع له تنارا..

فنست وعدها ومنعت كل النساء عنه... نرجسية وتملك.. لرجل لا تقيده محاسنها.

يا للمفارقة!.. عندما نحب من يحب غيرنا وغيره يحبنا... وكم هو مؤلم عندما لا تنفعك ملامح وجهك الجميلة، ولا مكانتك العالية، ولا عقلك الفريد... فكانت تغرق في الوجع وتغار من امرأة مشوهة، فلم هي بالذات يا ماسين؟ ذلك السؤال... يحرقها تود لو تعرف سر هذا التعلق بها.. ويستحيل أن يجيب عليه، لأنه لا يعرف حتى هو سبب ذلك، لم قد يحبها؟ وهو يكره كل ما تملكه..

الفضول كاد يقتلها، لماذا يفضلها عليها وعلى كل النساء؟ بقدر شوق ماسين لرؤية تنارا، بقدر شوق إيلينا لرؤية من تأخذ حبيبها منها..

القصور دائما تحتوي على عيون مبصرة، وعلى الآذان التي تسمع كل دبيب النمل، على سبل وطرق سرية.. دون أن تحس بها أو حتى تظن بها السوء...

ماركوس العاشق لإيلينا، تتبعها بين سراديب خفية داخل قصره، كان يسمع بجلالته كل شيء، ويعرف ما يدور داخل هذا الخفاء وبين أخاه المزعوم وزوجته... فَيُبَاغِتُ أفكارها ومخططاتها والأكثر هذا العشق المحرم بين أخاه المزعوم وزوجته...

قصة تنارا! إذن هي محور حياة أخاه نوما الجديد... إنها نقطة ضعفه، ونقطة قهر إيلينا.. لا تقهر المرأة إلا امرأة...

من يطلع على أسرار الأعداء، سيملك بيمينه السيطرة المطلقة.

ومع مبدأ عدو عدوي صديقي، عدو إيلينا أخاها حنبعل تو تحالف مع ماركوس، إيلينا لن ترضى بسلطة لا تحكم بها خليقتها القيادة والتحكم في دواليب الدولة، سرا أو جهرا حفيدة أليسار ليست امرأة هينة إنها ملكة تسري بدمائها طموح السلطة والحكم والعرش، ومن يساندها هو الملك بذاته.

حنبعل تو وماركوس وجهان لعملة واحدة، التقت مصالحهما حول نفس الأشخاص ونفس المعضلة في العرش والحب...

تنارا! اللغز والمفتاح التي ستحل الكثير من لغط الكلام والظن، وقد تضع كل شيء في مكانه الصحيح..

فمن هي تنارا؟ كيف سيحلان غموضا لا يملكان فيه حتى بداية للخيط.

كان الصبر والترقب والإحاطة بكل لقاءات ماسين مع إيلينا يجرح ماركوس ويطعن قلبه بصمت، ولكنه يزداد تعلقا بها كلما التقى جسده بجسدها المنحوت، ازداد جنونا وهوسا دون أن تبادله ولو جزءا صغيرا من محبته.

يعلم علم اليقين، أنها تتمنى غيره، وتعشق أخاه نوما فيحسده أكثر ويمقته أكثر فأكثر في كل يوم أو ليلة يعلم فيها أنها وهي معه قلبها مع هذا الأخ الذي ظهر من العدم..

وصل نبأ عشق إيلينا للملك رومولوس، فكل القصر أصبح يتهامس جهرا وخفية، إنها تغار عليه بجنون، وتؤذي كل من تقربت من نوما... رغم دهائها وذكائها، لم تستطع أن تخفي عشقا محرما لن تحلله آلهتهم ولا حتى أعراف الملوك...

هدد هذا مكانتها، وسلبها بعض الوقار في القصر، وكادت المصيبة أن تقع على رأسها لولا نفي ماركوس كل ذلك لوالده أخبره أنه هو من أمرها كي تصرف النساء عن أخاه نوما، حتى لا يلهينه عن تعلم أمور الحكم... لقد شهد شاهد من أهلها ولربما لو اتخذ زوجها موقفا ضدها لنفاها رومولوس أو أرجعها إلى أهلها بوصمة عار وعيب مشين.. ابنة الملوك... حفيدة أليسار أخفقت هذه المرة وجعلها العشق غير مبالية بأي جزاء... تحايل عليها ماركوس، في لحظة كانت إيلينا مهمومة فيها.. وبعيدة عن ماسين، تسلل هو إليه، وبثوب ووجه الأخ، راح يأخذ منه كل كلمة لاستدراجه كي يعرف سر تنارا.

أحاطه بالمودة والهدايا وحتى بعض الأسرار، جعل نفسه في مكانة الصديق والأخ الناصح، فذكره ذلك بصديقه كلوديوس ظنه مثل العبد الذي سرق له يوما الطعام لكي يطعمه، إن من

اعتادوا الوفاء، سيظنونه دائما موجود ومن يعتادون الغدر سيألفونه كطبع في الجميع.

حرب الأرخبيل الأخيرة

إينولا تملكت أرخبيل العبيد، وتحولت لكلوديوس.. تغيرت من القسوة لقسوة أعظم منها، الحزن توطنها والغضب سكن روحها ونظرات عينيها... إنها تصدق أن روح حبيب قلبها تقمصتها لتنتقم ممن أحرقها وسرق سعادتها...

كل العبيد على أرخبيلهم يرونها المختار، الذي سينهب حقوقهم من الطغاة، لا أحد سيصدق أن المختار هذا، هو نفسه ابنة الطاغية ماغون، وأنها أميرة عاشت بين القصور وأذاقت العبيد في يوم ما.. أصناف العذاب بيديها.. تلك القرطاجية الأصيلة كانت تحرضهم على ملوك قرطاج، على كل سلالة أليسار، وتصنع لهم من الاستحالة أحلاما أخاذة رسمت لهم عالما فاضلا، يكبر كلما عظمت أعدادهم، وبفضلها.. بفضل ذلك الغضب باتت قوة يحسب لها ألف حساب.

كل العبيد، لم يصدقوا أن حلم الحرية والأرض والوطن قد تحقق، وأصبحت إينولا أسطورة في البحر الأبيض المتوسط لم يروها سارقة تقرصن سفن الأغنياء والملوك لتطعمهم لهؤلاء الفقراء لتشبع هؤلاء العبيد، بل مختارا مرسلا من السماء.

خذرت آلامها الهائجة، بتلك الزوبعة التي صنعها المحتاجين لها، بكل تلك الآمال المعلقة على امرأة تائهة بين الغضب والانتقام.

رفضت كل المفاوضات والمساومات، أعلت شأن عبيدها لأول مرة في التاريخ، وكان هدفها الأول هو لقاء ماغون بروح كلوديوس.

وضعت أول معالم دولتها، فأسست من يفاوض باسمها واسم أرخبيل العبيد، وساومت مرور سفنهم المحملة بالبضائع بدفع الأموال وبصكوك الاعتراف بوطنهم الجديد هذا، كدولة قائمة بذاتها ضغطت على قرطاجة وكبار التجار، فاعترفوا بكتابة صكوكهم كرها ومسايرة..

ما عادت قرطاج ولا روما ولا قبائل نوميديا تحتمل زحف العبيد، لم تعد تصبر على هذا الذل الذي أذاقته إينولا لهم... إنه انتصار وراء انتصار.. غنائم وراء غنائم... قوة خلقت من الغضب والظلم... فمن يتحكم بها؟

نحو الوطن الجديد يذهب العبيد يذهب هؤلاء المظلومين والجوعى والتي أهلكت قواهم فتستقبلهم إينولا بل مختارهم بالطعام اللذيذ والدافئ والشراب المنعش والفاكهة... بكلمات تمدحهم... بأحضان لم يحلموا بها يوما فاستنزفت يد عاملة رخيصة وقوية، تختفي بفضل أسطورة المختار كلوديوس.

جن ماغون.. أكثر من نصف سفنه أصبحت بين أياديهم بكل عبيدها وبضائعها وما تبقى منها.. كان لا بد من وضع حد لهذا ودون ريب... فقد أصبح وزيرا فاشلا جعجعته لا تنفع الملك أجينور.

بدأت قبائل نوميديا، التي خسرت جزءا كبيرا من تجارتها تراسل قرطاج للتحالف، قصد القضاء على هذه المتمردة في نظرهم والتي ظهرت الآن من العدم، وتسببت بفوضى في فكر العبيد، لتتمرد على أسيادها وملوكها، لم يسبق أن كان هذا منذ استوطن الإنسان هذه الأرض وجعل من بعض البشر كائنات سفلى لا يحق لها ما يحق للأسياد أبدا... تجارة البشر تجارة مربحة فكيف لهم أن يخسروا هذا؟

كان العبيد يعيشون على نهب السفن التجارية، وأخذ كل حمولتها لبيعها من جديد، لكن الخطة تغيرت الآن.

راسلت قرطاج ملك روما... لبحث الأمر ولكن الحقيقة أنهم أرادوا استشارة ابنتهم إيلينا.. يعلم والدها جيدا أنها تستطيع أن تخطط لضرب العبيد ومختارهم دون أن تكلف قرطاج الكثير من الأرواح والمال وحتى الحرب وضربت خطة، فأحكمت التخطيط، ودرست الأرخبيل كيف نشأ كيف كبر من أصدقاؤه ومن أعداؤه.. لجأ لها والدها وهو يعلم جيدا أنه سينتصر بعقلها المحكم، فأمرتهم بمنع كل السفن التجارية وحتى زوارق الصيد، بالتوغل في البحر حتى تضعف مصادر عيش العبيد

ليتحولوا من مقاتلين إلى صيادة، يعتمدون كلية على السمك كمصدر وحيد للطعام، لقد ضيقت عليهم، وحرمتهم من كل تلك الموارد المنهوبة لشهور طويلة، ثم اشترت ذمم بعض العبيد، من يحلمون ببعض الأموال وحرية تطالهم هم فقط ولقنتهم ما يقولون وما يفعلون على أرض إينولا.. أرسلت للأرخبيل من يحرضهم ويقسم وحدتهم بالضرب على وتر الضعف والقوة الجسدية ومن الأحق في الحياة أو من يستحقون الموت جوعا، ثم طرح عقدة الأصل والهوية، فتشتت وحدتهم ليتمنوا الرجوع إلى العبودية بدل الموت جوعا وأكل رمل وبحر الأرخبيل...

الجوع لعبة الكفرة بالإنسانية... الكثير من البشر عندما يجوع فسيفكر بأكل لحم أخيه.

توقفت التجارة البحرية على طول البحر الأبيض المتوسط وكان ذلك لمدة سنة كاملة، كبدت الأرخبيل مجاعة هائلة.. نجح المحرضون مع الجوع الذي يبعث بالهلاوس، في نشوب معارك داخلية، حرب أهلية تنخر هذا الحلم وهذا الوطن... تضرر وتفكك نسيجهم وأصبحوا ينهبون ويسرقون بعضهم...

بدأت أسطورة كلوديوس تنهار شيئا فشيئا.. وحلم العبيد في وطن يتساوى فيه الجميع قد اخترق بفضل النزعة الأنانية التي تبقى داخل كل إنسان على هذه الأرض...

وبدأ بناء سفن جديدة لقرطاج، بغرض الحرب ضد المختار وعبيده، مئات السفن الصغيرة، التي تحمل جنودا ومرتزقة من نوميديا قرطاج روما.. شحن ماغون خمسون ألف جندي، نحو أرخبيل العبيد، وفي غمرة التهائهم بالحرب على الطعام... غزتهم جيوش ماغون، قتلت كل من يقاومهم وفتحت سفنها نحو من يستسلم ليرجع لنقطة الصفر كعبد من عبيد قرطاج...

وأمام كل العبيد، وجنود قبائل نوميديا وروما وأجينور التقى ماغون بمن ألحق به كل تلك الخسائر والهزائم... المختار يطلب قتالا أخيرا مع الطاغية وجها لوجه...

لم يعلم والدها أن ابنته الوحيدة، هي من تطالب بمعركتها الأخيرة، كان مملوءا بالغرور والقسوة، وكانت هي مملوءة بالوجع والغضب والانتقام... كل ضربة من سيف ماغون تشعره بألم وإن كانت الضربات على جسد عدوه هذا.. عدوه الذي يظنه كلوديوس وما خطر على باله أنها إينولا، التي بحث عنها نادما طيلة فترة غيابها، قد أحس بندم ينهش قلبه الذي استيقظ عندما وضع تلك السلسلة الحديدية على وجه ابنته..

ما كان يستطيع النوم.. كل كوابيس الظلام تهاجمه لعلها لعنات العبيد الذين أحرقهم دون ذنب... إنه يلوم نفسه القاسية عندما هجرته ابنته الوحيدة، وتركته فارغا كأنه لم يعش في هذه الحياة..

شعر بشيء غريب، لكنه ظل يعاند حدسه، طريقة قتال هذا المختار، تشبه قتاله وتدريبه ونصائحه، ولكنه بقي يخاطب نفسه أن السيوف كلها تتشابه.. وفي لحظة أدخل سيفه بين ضلوع هذا المقاتل العنيد ليجدها رقيقة هشة حتى أنه سمع كسرها بين أذنيه...

عاش كلاوديوس مرتين كما مات مرتان، وعلى يد نفس الطاغية.. تجهمت وجوه العبيد الذين كان يرونه أسطورة وأملا يُجري الدماء الساخنة في عروقهم... سالت دموعهم وهتفوا باسم كلوديوس فقد بقي رغم هزيمته رمزا لثورة العبيد لحرية تتأملها قلوبهم.. فلولا طائفيتهم، لولاها لكانوا أبطالا لا يهزمون..

استهزأ بهم ماغون... خاطبهم يريهم أن مختارهم هذا مجرد مسخ مثلهم يشبههم وأمسك طرف سيفه الحادة ليمزق ملابسها واللثام الذي كانت تضعه إينولا، لثام بطلهم الأسطوري، والذي لم يعلم وهو ينظر إليهم قبل أن يراها.... أنها فلذة كبده.... وجوههم الحائرة التي تكشف أن جسد كلوديوس الذي قهر كل أسطول قرطاج ووحد عبيدا من كل جهات الأرض، ما هي إلا امرأة تخفي وراء ثيابها الكثيرة مفاتنها...

كان يلومهم يسخر منهم يذلهم... ووسط تلك الكلمات الساخرة، نظر لجسد إينولا... فتقطعت كلماته، دخلت الحروف بين متاهات كثيرة، هل هو خيال مشتاق فقط؟.. ليتخيل ابنته في جسد عدوه.. هل.. هل قتل ابنته بيديه ومَثَّلَ

بها للتو؟ صمت هاجمه سكون مليء بالانتحار... الجميع صمتوا مثله... رمى سيفه... ركع ثم خَرَّ على الأرض فسمع صوت دروعه يزلزل الرمال... نزع ما عليه من دروع وستر جسد ابنته الوحيدة، التي حَمَّلَهَا ما لا طاقة لها به منذ ولدت، الذي عذبها ليرضي غروره وجنونه بالقوة والعظمة، الذي أحرق وجهها وسرق فرحتها وأخيرا قتلها وسخر من حرب حررت فيها نفسها وكل العبيد...

احتضنها بقوة.... وبقوة صرخ صرخة واحدة ثم أخذ سيفه وغرزه داخل قلبه... لتنتهي أول معركة بين العبيد والأسياد.. وبين الحب والكره.

النعيم الأخير

ماركوس.. فتح عينيه على مُلك رومولوس، اعتاد نعيم الحياة، لم ير من البؤس شيئا، فكل أحلامه كانت تتحقق وأكثرها النساء والسلطة.. كل شيء كان على ما يرام، حتى ظهر نوما الجديد... أخاه المزعوم هذا الذي ولد من العدم وحرمه من عرشه وحبيبته في لحظة... أخذهما في لمح البصر ولم يترك له أي فرصة كي يدافع عما يراه من حقه، لتختفي وتذوب أحلامه كما يذوب الملح في البحر..

إيلينا.. ختم بها ماركوس كل نساء الدنيا، وكل ذلك النعيم لا يكتمل إلا بوجودها في حياته.

لا أحد يعلم ما تفعله الوحدة به، والتي فرضتها مشاعر الهجران التي مارستها إيلينا عليه بصمت أو أمام الجميع أبتلي بعشق يأكل قلبه ويمضغه في وحدة رهيبة تنقصه من أطرافه هذا العشق العظيم علمه ذرف الدموع وهو نائم معها، وهي ترفض قبلاته وأحضانه وكلماته التي تتعتق داخله كالخمر فتسكره وحده وتنهك جسمه وتفكيره كما تنهكنا الذنوب...

طرف واحد يحب من لا يحبه، ستكون معادلته غير متكاملة الأطراف، وتجرح وتمرض وتمنع النوم والطعام.. أصبح قلبه عليلا بعشقها المأساوي.

عندما يكون الحب مرضا، سيحول الجسد لجثة تأكلها الوساوس.

والغيرة على إيلينا، تضاعف من حسده لنوما، إنه يراقبها دون أن تدرك، ليس لأنها غافلة، بل لأنه مهمش في قلبها وخاطرها، ورغم هذا يعد أنفاسها وهي مشغولة بمشاكل قرطاج وهمومها، بمشاكل روما وعظمتها وقبلها بعشق ممنوع على السيدات.. ودون أن تلتفت لزوجها المجنون بها...

لم تقدر كم يحبها، لا تهتم به ولا تريد، إنه مجرد جسر لها لتضع ماسين أو نوما الجديد على عرش روما، وتستغله كي يصبح تابعا لوطنها قرطاج..

مشغولة إيلينا بكل شيء، إلا ماركوس، الذي كانت تظنه يعاشر النساء مثلما يفعل ماسين، ويعشق كل الجميلات مثلما يفعل ماسين، لكنه كان في عالم آخر.. عالم إيلينا دخله منذ وطئت أقدام حفيدة أليسار روما...

نعمى عن الأحباء، في غمرة الحياة، نختار في أوضاع لا تسمح لنا أن نختار فيها، أشخاصا لا يليقون... قلوبنا عجيبة، عجيبة جدا..

ماركوس بسببها أصبح سكيرا أكثر مما كان عليه، تداويه الخمرة من تعاسته وغيرته وعذابه، تداويه من ذكراها والتفكير بها.. تلك الجاحدة أشعلت ناره... جعلتها تشتعل فغاب عن السياسة والمملكة...

والمكر بدأ يكبر أكثر وأكثر، داخل قرطاج كان حنبعل تو يفكر باغتيال والده، لم يعد صبره يحتمل ما ينويه والد إيلينا، داخل قرطاجة العميقة، يتكلمون عن إعلان الملك أجينور، لولي عرشه، الكل يتكلم عن حفيدة أليسار، التي سيوليها والدها مملكته قريبا...

مجرد الكلام عن هذا، مجرد هذه الهمسات المقلقة لحنبعل تو، تجعله في ثورة من الغضب، لا بد أن يفعل ما يستطيعه قبل ضياع حقه الذي يظنه.

ذهب إلى روما بنفسه، للقاء حليفه الأول ماركوس دخل عليه ليجده في خمارته وسكره اللعين، اغتاظ... إنه يفقد ورقته الرابحة، وهذا بسبب أخته أيضا... تلك الداهية، دمرت حليفه وجعلته دائم التيه، حمله حنبعل تو وأخذه عائدا إلى قرطاج مجددا، أبعده عن آلامه المجسدة في زوجته إيلينا عله يستفيق ببعده عنها، لن يسمح له بأن يمتلئ بالضعف والهوان، كان عليه أن يزرع داخل قلبه الحقد والانتقام على تلك الأخت العدوة.. لكنه عاشق لها فهل يتحول الحب لكره؟... لربما يكون.. إن اختلط بالغيرة وشدة الألم.

كان كالشيطان، يحشو داخل رأسه ليحول عشقه لمشاعر حاقدة لا نهاية لها سوى الموت، يصور له أنه بقتلها سيتحرر من عشقها الذي يأسره ويشغله عن عرشه وحقه المسلوب بيد أخاه نوما.

تحول لأخ وزوج مسعور بفضل وساوس حنبعل تو وعلل له أن مملكته لن تقوم لها قائمة إلا إذا استرد عرشه الذي هو أولى به من فم الأسد... وضع أول الوساوس عن حقيقة ماسين.. من هذا المدعي الذي جاء متحديا وقد عر أكتافه أمام الملأ؟.. أراهم أجمعين وفجأة وشما للذئبة لوبا... أثار هذا شكه والكثير الكثير من الأسئلة.

ورغم كل دسائس حنبعل تو، وكل تحريضاته ضد أخته إيلينا.. إلا أنها كانت الحقيقة، لم تحضر إيلينا ماسين بثوب نوما عبثا، إنها تخطط لقتل زوجها ماركوس، وتتزوج من نوما بعدها فتربط قرطاج بروما العظيمة... كانت هذه دسائسها... ولكنها تنتظر وقتا لن يشك فيه أحد بأنها هي القاتلة...

وتلاقت المصالح ووجهات النظر... كلاهما اتفقا وتحالفا وصنعا مؤامرة سيندى لها الجبين، إنهما يتآمران على ملوكهم بالموت، دماء الآباء التي ربت، ستسيل على بلاطات القصور بآيادي أبنائهم الذين تحولوا لأعداء لهم لأجل الكراسي والعروش، سوغت لهم الأطماع الحق مشبعا بالدم والعنف ثم صنعا لنفسيهما حقا سيأخذانه بالانقلاب والقوة... لأجلها.. لأجل هذا المُلك سيقتل الأولاد آباءهم وإخوانهم وأزواجهم... صلة الدم لا رحم فيها داخل القصور.

وبدأت خطتهما السوداء، تنسج من قصر قرطاج إلى قصر روما.. والمفاجأة ما زالت مخبأة لنوما وإيلينا.

ماسين كان داخل النعيم يتعذب، حرب داخل جنة شهوته تترصد به أعين الجميلات لممارسة الحب، وأعين الحساد التي تغار على نسائها منه...

غياب ماركوس عن روما، فسح المجال لروموليوس كي يعلم ابنه نوما الجديد، بأن يحل محله دون لوم وعتب ولده... علمه كيف يقود مملكته، كَوَلِّي للعرش، وهبه صلاحيات لم يكن يتخيلها يوما داخل عقله ولا في أحلامه.... كان يفخر بوسامة هذا الولد الذي ظهر بعد يئس من العدم... اكتشف ماسين داخل ذاته رجلا آخر، الحكم يعلمه أن يرى الأشياء بزاوية أخرى وبمفهوم بعيد عن رجل كان يرى كل العالم نساء وطعام ونوم..

السلطة مغرية... نعم مغرية وفاتنة وبراقة تعمي الأبصار والقلوب... السلطة عندما تمارس دون وعي بوهم الزعامة والنفوذ فقط وأخذ للحقوق دون إعطاء الحق لأصحابه فكأننا قد شيدنا صرحا فوق الرمال الزاحفة... لا مجد ولا بقاء.

غياب ماركوس عن إيلينا، التي لم تكن تهتم أصلا بوجوده أو غيابه، جعلها مرتاحة من ولعه ومراقبته اللصيقة لها... لكنها أصبحت تعيش وتتخيل حقا على ماسين والذي قد فقدته بزواجها من ماركوس الذي قيدها كسيدة..

لم يعد ماسين يحتمل سيطرت إيلينا الدائمة، سؤالها الدائم، رغبتها في التملك والتي لم تعد هي بنفسها تستطيع التحكم بها.

تلك السلطة التي وضعتها بدهائها بين يدي ماسين بدأت تبعدها عنه، كأنها ذبحت قلبها بيديها، إنها تحبه.. ترغب به تريده أن يكون بجانبها كل الوقت، لا تتلذذ بالحياة إلا وعينيها تراه.. ولكنه أمسى يبتعد كل يوم عنها أكثر فأكثر لتعيش العذاب بما صنعت يداها..

ولم يكن نوما الجديد سعيدا أيضا، حتى وهو يتملك كل روما، كان يرى طيف تنارا، في ملامح كل النساء... كأنهم جميعا في دائرة يدورون، ولا نهاية يصلون إليها.

وجاء ماركوس، يحمل في قلبه أثقالا من الغيرة والشوق أيضا، من باب قصره إلى باب غرفة نومه، استدعاها فأتته أمسكها كأنه يختطفها، يتلمس جسدها بكل الشوق واللهفة كأنه لآخر مرة سيفعل ذلك، راح يأكل شفاهها الممتلئة والحمراء، لا يشفق بممارسته لحبه المجنون وشوقه الماجن إنه يقول لها كل كلمات الهيام، وترد عليه بكلمات الكره والقرف، فيزداد تعذيبا لها في فراش كان ينتظر المودة والغرام..

لم يكتف منها مهما كانت معه، حبه يجعله عطشا بها بل حملها غصبا لسجنه الذي جهزه خصيصا لإيلينا وجعلها عشيقة بدل زوجة..

كان يود لو يستطيع قتلها، ولكن عشقه غالب عليه وشوقه لها... هو ما سيقتله.

علاقة زوجية متعبة، قاهرة لقلبيهما معا... إن سجنها بديل سيرضيه عن الموت... فحنبعل تو لا يدرك معنى العشق، غير عشقه لمصالحه وسلطته، لكن إيلينا في قلب ماركوس، أعظم من كل عروش الدنيا، ولا تقدر عنده بثمن...

يعلم أنها تكرهه، فيفنى قلبه التعيس، ليتها كانت تحبه ولو قليلا، قليلا فقط، لكنها لا تطيق أن يضع جزءا من أصابعه على شعرها الذهبي ووجهها الأبيض كالثلج..

كان يأمل أن سجنها، سيجعلها تستسلم له، ولكنها عنيدة متمردة، قوية لا تعترف بالهزائم لا في المعارك ولا في الحب.

يوما وراء يوم، استفقد ماسين الأميرة إيلينا، يستحيل أن لا تراه، وأن لا تبحث عنه... شم رائحة غدر وسوء في روما.. فالكل مشغول إما بنفسه، أو بسياسة رومولوس التي يحاول فيها أن يؤسس لديمقراطية تنفي عنه ما يقال.. فهو لم يقتل توأمه روموس، كل الذي حدث أنه دافع عن نفسه، عندما حاول أن يغدر به ويستفرد بحلم طروادة الجديدة وحتى بحبيبته إيديرا، أم نوما التي لم تحتمل موت روموس واعتبرته نذير سوء لأرض ستبدأ أركانها بالدم والقتل... أخذت رضيعها وهربت دون رجعة، كأنها تبخرت في السماء.. حزن جدا على

طفله وإيديرا، ومسته كآبة عظيمة على روموس، فقد كان جزءا من روحه، بل وكل عائلته التي تذكره بأصله المباد..

كلهم يكذبون ويلفقون في الخفاء، نميمة سيئة، لا علاقة لها برومولوس، الذي لو تمنى عليه روموس كل الأرض لأعطاه إياها وعاش تابعا له..

حتى أنه عندما غرس سيفه في قلبه، كان يظنه عدوا يتربص به، فإذا بالعدو كان أخاه وكل وطنه.

عندما هربت أم نوما بولده، أحس أنها هربت بروموس كما هربت بكل عائلته، فقضى زمنا يبحث عنها دون أمل.

طعم الألم الذي سكن قلب رومولوس، طَيَّبه وداوته عودة نوما، أصبح يحس بأنه استدرك الزمن، واحتال عليه، وأوقف تلك اللحظة التي غرس فيها سيفه في قلب أخيه.

كأنه عوضه أربعة عقود من الوجع، فأحب نوما.. أعطاه كل عطفه وحنانه وحكمته وسخائه، حتى أن ابنه المزعوم هذا شعر بانتماء دمائه إليه، بل وكأن الذكريات صنعت نفسها داخل عقله الفارغ منها.

تقمص وتلبس هذا الدور وصدق كذبة ومكيدة إيلينا ودون ريب منه.

وبدأ ماسين، يبحث عن إيلينا المختفية دون أن تعلن نيتها بالاختفاء، لا يمكن أن تفعل ذلك في ذروة مكائدها التي تحيكها في قصر روما.. هناك خطب كبير يخاف أن يفكر حتى فيه..

حتى التقاه في رواق القصر، ماركوس يبدو على ملامحه شكل من التغيير، لم يعد ذلك السكير الذي لا يستطيع حتى أن يصلب طوله.

هناك ثقة ومكر في عينيه، يشبه مكر زوجته القرطاجية لكنه خال من بريق عينيها الزرقاء كالمحيط.

بعض الكلمات التي بدأها نوما كأنه يستبق السؤال الذي سينفجر من فمه.

عن رحلته لقرطاج، أحوال المملكة ثم... أين هي إيلينا؟ لم ينتظر حتى إجابة زوجها عن كل تساؤلاته...

فأجابه ماركوس بكل أريحية وكأنه يريد له أن يعرف بذلك بلهجة تحدي وقد أصدر همهمة صغيرة قاتلا:

"إيلينا... إيلينا مسجونة في غرفة نومي، عندما أحب أن أنتزع حقي منها، أذهب إليها... وأنا أفعل ذلك كلما أريد... في كل نفس منها أفعل ذلك، إنني أتعلم كيف أسترجع حقوقي.... هل تصدق؟ بدأت أتعلم أخيرا... وأظن أن القوة هي السبيل الوحيد لذلك يا نوما... يا أخي الجديد."

صمت ماسين.. ابتلع كل الكلمات التي كان سيتفوه بها... لو كان الذي تكلم معه ماركوس السكير.... كان رد عليه.. لكن هذا الذي يخاطبه قد فاجأه... يمتلك غيرة شرسة على زوجته يدرك هذا النوميدي أنها من حقه فأخرسته.. أما لهجته فقد كانت مليئة بالحقد والكراهية كأنه ليس الذي عرفه أبدا.

ماركوس رجع من قرطاج، وهو يحمل مفاجأة لا تخطر على بال إيليلنا ولا ماسين، وأحضر داخل عقله أفكارا أخرى، زرعها حنبعل تو كما وضعها هو بذاته في عقله الحاقد.

إيلينا في غرفتها تفكر، كان عليها أن تخرج من مأزقها هذا بينها وبين نفسها كانت تعرف أن كل أفعال ماركوس ما هي إلا تخطيط من أخيها حنبعل تو، ماركوس الذي أهملت ورقته وقد رمت به لأسفل السافلين... ها قد عاد وهو يمسك بها كما يمسك بالعصافير في الأقفاص..

ولكن هذه هي إيلينا حفيدة أليسار، التي تحرك أساطيلا كاملة بكلمة واحدة منها، والتي تحرك قلبه كما تحرك الملعقة بالفنجان.

زينت نفسها للقاء لن يكون غصبا ولا انتقاما بماركوس فدخل عليها ليجدها كملاك يأخذ بجماله عقل الناظرين..

ضعف.. نعم... تصيبه بالضعف والاختلال.. هو يحلم أن تحبه ولو قليلا... قليلا فقط، حتى يشعر بوجود روحه وقلبه الذي بين أضلاعه.. استطاعت أن تلينه.. لكن المثير أنه بعد انتهائه من ممارسة حبه لها، بعد مبادلتها لأول مرة لقبلاته ولمساته المشتعلة، أغلق مجددا عليها الباب، كأنها لم تفعل شيئا... كانت تحس وهي تفعل ذلك أنها تخون حبها لنوما الذي صنعته.. قهرت نفسها في كل قبلة.. كأنها تبيعها... فازداد جنونها وغضبها من زوجها الذي يقيدها ويسجنها دون محاكمة حتى..

كان لا بد على نوما، أن يخبر والده بمعاملة ماركوس للأميرة القرطاجية، التي لن يغفرها والدها أجينور، وسيوتر العلاقات بين تحالفات احتاجت للكثير من الصبر والتضحية كي يصلوا إليها.

لذلك وبخ الملك رومولوس ابنه ماركوس، وبعد جدال طويل رضخ لأوامر الملك، بعد أن عزم أنه سينهي حياته قريبا، ولكن بعد أن يرمي أيضا بمفاجآته على أعدائه الجدد.

فتح قفل الباب.. وجاءت خادمات إيلينا، يحطنها من كل جانب ليصل الملك بنفسه ويعتذر من تصرفات ابنه الطائشة....

خرجت تظن نفسها انتصرت، بفضل أصلها وسلالتها ولكن الحقيقة ما زالت مختبئة ينتظر فيها هذا الذئب متى ينقض فيها على غريمه.

أمر ماركوس أن يجهزوا وليمة عشاء، على شرف زوجته إيلينا كعربون مودة وأيضا اعتذار لها هكذا كان يقول.. ليلة من الاحتفال كانت هادئة في تلك القاعة الكبيرة، أين يجلس الملك نفسه مع كبار روما.. كل الطعام والشراب ونبيلات روما كلها في حفله ماركوس.. كن يلتهمن ماسين بنظراتهن... فتملأ الغيرة قلوب كل الرجال منه... يبدو أنه أخذ الوسامة والسلطة والنساء... ولكن... هؤلاء الحسدة لم يعرفوا ثمن كل هذا النعيم... وامتلأ قلب ماركوس بالغيظ أكثر من الجميع... ثار كرهه كلما سمع مديحهم أو حتى كلمات الحسد والنميمة..

وأخيرا امتلأ آخره منه، وهو يرى والده مبتهجا بنوما.. يكاد يقف من على هذا العرش ليجلسه عليه.... ود لو يغرس سيفه داخلهما لينهي كل هذه القصة..

إلى حين أن حضر أحد الغرباء، ليهمس في أذن ماركوس وكأنه قال له كلمة واحدة، والذي ابتسم ابتسامة ماكرة بعدها.. كان سعيدا مبتهجا، وعلى غير عادته لم يذق رشفة خمر.. كأنه يريد الاستمتاع جيدا بوجوه كل الحاضرين وهو بكامل يقظته، بل بوجه نوما بالتحديد... والذي كان يراقب هو وإيلينا حالة ماركوس الغريبة، والتي تثير شكها وريبتها.

لم يمض من الوقت الكثير حتى تكلم ابن رومولوس الذي أصبح غريب الأطوار، وهو يصفق بيديه طالبا من الجميع أن يصمت، أخبرهم أنه أحضر من قرطاج شيئا فريدا من نوعه لن يتسنى لأي أحد أن يرى جماله وبهاءه لقد أخبرهم أنه سيتزوج على إيلينا امرأة أجمل منها، لا تحب أن يلمسها أي رجل غير زوجها... في لهجة تفضح كل الأقاويل التي تتردد في القصر وخارجه.

جمدت ملامح حفيدة أليسار، وسَّعت عينيها وثبتت جيدا في ماركوس، الذي تعلم علم اليقين أنه يذوب في عشقها ومجنون بها...

لم تصدق... لم ترد ذلك، كانت صدمة لها، فجرها زوجها دون سابق إنذار في وجهها، كل امرأة تغار على مكانتها وإن كانت في أفئدة تكرهها.

ولكن المفاجأة ما زالت لم تبدأ بعد، فبعد خطبة طويلة عريضة، ووسط ذهول الجميع، أمرهم بإحضار من سيتزوجها في عرس أسطوري ليقدمها للجميع، كانت أعرافهم تسمح لهم باتخاذ زوجات وعشيقات فالملوك لا تمسهم قوانين العامة ولا أعرافهم... وفي وسط ذهول إيلينا والجميع.. أحضروها خدمه وهم يحملونها على عرش مزين بأعمدة من الذهب والياقوت الأحمر والأحجار الكريمة.... كأنها في حديقة من الخيال... أراد أن يكرمها ويجعل منها مرغوبة أكثر من زوجته التي عذبته، كان فستانها الطويل المزين بطرز دقيق وملون من بلاد الشرق الأقصى.. ينزل من عرشها المرفوع على أكتاف الحراس والخدم إلى الأسفل في منظر بديع...

وعندما رفع الغطاء على وجه الخطيبة الجديدة، أحس ماسين بأن هناك من ضرب وبكل قوته وسط قلبه بخنجر مميت...

إنها تنارا، حبيبته التي اشتاقها ورآها في وجوه كل النساء تلبس أجمل الفساتين، وجهها رغم حزنه منير له هالة تجذب حتى الحجر إليها... راح يكلم نفسه، لا بد أنه يحلم، ويرى كما اعتاد أن يرى محياها وقسماتها في وجوه كل النساء....

لكن الأمر لم يخص ماسين ولا حتى ماركوس وإيلينا.. الأمر أصبح يتعلق بالملك نفسه الذي كان يخطو بخطوات مثقلة نحو تنارا... وكأن ملامحه وقسماته رأت شيئا عجاب...

صاح مناديا أمام الحاضرين....

- إيديرا.... لقد عدت أيضا!...

تجمد الجميع... ساد الصمت مكان الثرثرات والهمس الكثير... تلك المفاجأة التي صنعها ماركوس لإيلينا ونوما... كان وقعها مفاجئا أكثر على والده الملك... وعلى نفسه أيضا.

إيديرا.. إيديرا الهاربة منذ زمن بعيد.. كرس فيه رمولوس كل جهوده لإيجادها.. وعندما يئس جاءته وحدها عروسا محملة على الأكتاف... ومن جاء بها كان ابنه الذي يدعي أنه سيتزوجها في عرس مهيب.

يا للمصيبة!... الانتقام بات ينتقم بنفسه من الجميع.. وكأنه غضب من هؤلاء القتلة الغدارين.. انتقم من الجميع بضربات موجعة وقوية لكل واحد منهم....

تنارا هي نفسها إيديرا الهاربة من ملك روما!... هي التي أخذت ذاك الرضيع ذات يوم واختفت عن الوجود... ماذا تخفين أيضا أيتها الغامضة؟ تلك الصامتة... التي تتكلم حين تريد هي.. وإن تكلمت فالقليل القليل فقط من يفهم ضرب معانيها.

رغم كفافها وصمتها.. فإنك عندما تنظر إليها تحس أن تلك العزة والشموخ، ما هي إلا إجابات غير مسموعة ولا محلولة في عقول الناظرين.. هيبتها مخيفة وساطعة.

وهاهم ثلاثة رجال... لكل واحد فيهم قصة تتشارك من بعيد أو من قريب بينهم... وترتبط أخيرا بتنارا.

ولكن قصة ماركوس الذي يقول أنه سيتزوج من امرأة هي زوجة والده الهاربة وأم أخاه نوما... قصة لا يمكن تقبلها حتى في عقول المجانين...

اقترب الملك من امرأة يئس من لقائها... قبل فستانها ويدها وراح يكلمها في همس خفي كان الله وحده من يعلم إذا كان عتبا أو اشتياقا أو كلاهما... وقع الصدمة كان قويا على الجميع وكل واحد فيهم تسمر في مكانه لا يعرف ماذا يفعل وكيف يتصرف.

حتى أمر الملك بإلغاء هذا العشاء.. وطلب من الجميع الانصراف إلا ماركوس ونوما رغم رغبة إيلينا في البقاء إلا أن الملك كان في حالة لا تسمح لها بجداله...

والآن ها هم الأربعة وسط هذه الزوبعة.. الملك وولداه وامرأة أخلطت الخطط والمكائد دون أن تفعل شيئا..

إيديرا... ماسين.... ماركوس... أمام الملك الذي جلس خائر القوى على عرشه... أمسك رأسه وصرخ صرخة مرعبة ارتجف

منها ولداه... نظر لابنه ماركوس نظرة غضب وعتب وتكلم بصوت خفيض:

"ما قصتك معها؟ أخبرني بالتفصيل.. أين وجدتها؟ وكيف قررت أن تتزوج زوجة والدك أيها العفن؟"

ماذا سيقول ماركوس يا ترى؟ إن أجاب بالحقيقة فسوف يقول ما يعجل بغضب لا تحله كل الحلول؟ كل الذي قاله مجرد جملة تستطيع أن تجعله بريئا في نظر ملك روما..

"لم أكن أعلم أنها والدة نوما.. لم أتوقع ذلك يا والدي لم يخطر ببالي حتى.. إنها تبدو في ريعان الشباب بل تبدو أصغر مني..."

كل الجدال الذي كان بين الوالد وابنه لم يسمعه ماسين.. تركيزه كان في تنارا أو ما يسميها هذا الملك إيديرا.. قصص هذه المرأة لا تكاد تنتهي.. بكل عيوبها وزهدها وصمتها... فإن الملوك والنبلاء وحتى أولاد القرى يرونها امرأة تستحق النزال... هي لا تمتلك أثداء عارية ولا جسدا مفصلا.. ولا شعرا يظهر على رأسها... كل شيء مغطى ولكنها تفتن كل الرجال.

لا بد أن يكون هذا هو البلاء الحق أو ذاك الحب البعيد الخفي الذي يتجذر في الأعماق كجذور السنديان.

اللقاء... لقاء العاشقين بعد اليأس، يخلف فرحا موجع... نعم كأن الفرح والشوق يتصادمان فيخلفان الألم..

ما الذي يحدث يا تنارا؟ هل أنت تعلمين بما حدث لماسين؟ بما أصبح عليه ذلك النوميدي الشهواني، الذي تحول لولي عرش روما بأكملها... هل كنت تعلمين؟ هل تركه إياك مجروحة مكسورة القلب جعلك تتآمرين عليه أيضا رفقة حنبعل تو وماركوس الذي يملأه الحقد والكره والغضب؟ وساوس عابرة مثل هذه، مرت على خاطر ماسين، خلفت ما يخلفه الشيطان بعد كيده ووسوسته.. لكن كل الوساوس ذابت أمام هالتها... ليته يحتضنها ويتأسف إليها أمام الملأ.. ليتها ترضى عنه.. هل كانت تسمع خواطره كما كانت قبل هذا اللقاء؟.. امرأة خارقة للطبيعة.. تغلغلت في مسامات الحياة وعروق دماغه الصغيرة... ما منعه من الصراخ كان الخوف من النتائج... قد تودي بالأمور لحرب بين قرطاجة وروما دون ريب... خطط إيلينا كبيرة وطمعها في الحكم بينهما لن تمر مرور الكرام... صمت وإذا بالملك يخبره بأن هذه المرأة هي والدته... إيديرا والدة نوما بينما هي قلب ماسين نعيمه المفقود بين قصصها وعقدها وغموضها.. أما هي فإنها صامتة.. صامتة لا تنفي ولا تؤكد أي شيء.. كعادتها لا تجبر فضولهم ببنت شفة.

كل المراوغات والأكاذيب تمر... كغيمات الصيف إلا المدفون من المشاعر فهو صامد كالجبل أمامنا دون ريب.

وانقضى كل ذلك الجدال، ملك روما الأول كان يتفقد ذكرياته السحيقة، إيديرا التي رفضت الدم بين الإخوة رفضت

البقاء في تلك الأرض، أخذت مولودها.. الذي كان مولود روموولوس البكر واختفت عن عيونه وأجادت ذلك لسنوات.

حتى جاء ماركوس أو... حنبعل تو ذلك العفريت الذي يحركه خوفه من أن تسلب أخته الداهية العرش، وجند لقاء ذلك كل المال والجنود والسحرة لاقتفاء أثر تنارا... ليجد أثر إيديرا.

من كان يصدق ويخطر في باله أن تلك الصامتة والصوفية مجرد هاربة من الملك بولي عرش روما العظيمة.

ولكن أين وليدها؟ أين نوما الحقيقي؟ عندما التقاها ماسين كانت خالية الوفاض من أي ولد... تلك الأسئلة يمكن لها وحدها أن تحلها.

سخرت إيلينا من ماركوس... تلك هي شخصيتها المستفزة والساخرة والتي تحب أن تظهر بها، حمق وغباء وأخطاء الآخرين... فعلت ذلك دائما لأخيها حنبعل تو فأتلفت مع حسده رابطة الأخوة كما فعلتها مع ابنة عمها إينولا والآن مع زوجها ماركوس... لم ترحمه فكان يأكل ما تبقى له من اتزان وصبر عليها.

ولكنها كانت تفكر في مأزقها مع إيديرا، تعلم يقينا أنها تعرف سرها الذي خططت له بإتقان، بأن نوما ولي العرش الذي عثر عليه الملك، ما هو إلا كذبة كبيرة، قد تودي بها إلى أكثر من الموت.

فكرت أن عليها أن تجس نبض إيديرا لتعرف بما تفكر به وأيضا لتشبع فضول تساؤلاتها الدائمة.. في هوية تلك المرأة التي أثارت أعماق حبيبها ماسين...

لم يكن من السهل لقاء أم نوما.. لقد طلبت من الملك مكانا معزولا لا تريد رؤية أحد فيه.. وكأنها تهرب من كل تلك الأكاذيب التي وجدتها.. تريد اعتزالهم وتركهم مع كل سمومهم وحروبهم وشهواتهم وحتى عشقهم... لا بغية لها فيما يشتهون ويتآمرون.

كان الأمر صعبا جدا على ماسين.. أحب لقاءها تمناه ولكنها دون مناقشة حتى اختارت عدم اللقاء، لا شك أن لها كل الحق مع بشاعة ما فعله ماسين.

لا حول لماسين ولا قوة في قنص دقيقة لرؤية هذه القادمة هذه الحبيبة.. مكانها مجهول يعرفه إلا ملك روما وبعض حرسه الذين اختفوا هم أيضا عن الأنظار، أراد أن يعرف مكان تلك المرأة التي قيل أنها والدته.. ولكنه عجز عن ذلك رغم بحثه المضني.

كيف هذا؟ وما هذا الاختفاء والعزلة والهجر؟ أحيانا يفوتنا حتى الاعتذار.. لا سبيل إلينا إليه... ليت الأمل بقي على حلم اللقاء... وطلب المغفرة.

فماذا تفعل إيلينا أمام موقف كهذا؟ هي لا تتوقف حتى تنال مرادها وإن طال الزمن، والمال يحل الكثير.. الكثير من المعضلات... أغدقت على حارس الملك الجواهر والذهب حتى

ساقها إليها... لا أحد كان يعرف ما تدبره هذه الأميرة في سبيل تحقيق أهدافها... لن تترك فرصة لأعدائها أو حتى لزلاتها أن تكشف سرا خطيرا كهذا...

دخلت عليها صومعتها ليلا... أين اقترب انبلاج الفجر وهي جالسة كأنها تنتظرها... أحست إيلينا بقشعريرة تسري داخلها لا تعلم سببها، غير أن سكينة وهدوء إيديرا لا يمر مرور الكرام على أنظار المتآمرين والمتربصين بها.

كانت تظن تلك القرطاجية أن هذه الكفيفة التي تحمل حقيقة سرها لا يمكن أن تراها تدخل عليها لتنتهك سكون ليلها وصمتها.

كانت تتقدم كما يتقدم الذئب نحو الفريسة، تحمل خنجرا مسموما لا يدع مجالا للحياة.

أرادت قتلها بيديها.. فالغيرة منها عظيمة وشديدة... تقتلها.. تكسر قلبها وتنغص عليها لذة حبها وعشقها لماسين.

عندما اقتربت نحوها كثيرا... تكلمت إيديرا بكلام هز تفكير إيلينا.

"لا يمكن أن نصرف من قدرنا مواعيد الموت ولا الحياة.. ولا يمكننا أن نتحكم في مشاعرنا حبا أم كراهية... من قال أن انتصار الشهوة هو النهاية؟.. رغم أننا نحبها ونرغب بها.. إلا أن الأرواح الاستثنائية ستطبع بصمتها وتتربع مكان هذه الشهوة دون ريب... الخاصة من البشر يعيشون حياة غير العامة... فها

أنا أبصرك دون نظر.. فاتنة ولكنك تحملين روحا فارغة وشاردة... تائهة دون وجهة للحقيقة."

تكلمت إيلينا تحاول أن تهزأ وتسخر كعادتها من الكلام عن الروح... الذي تفوهت به هذه الكفيفة غريبة الأطوار:

"الشهوة فطرة فينا أيتها السيدة... والحب نكتسبه.. فمن قال أن الحب الروحي هو من سينتصر على فطرة الشهوات؟ من قال لك أن الرجل سيحب امرأة بشعة جسدها له عيوب كثيرة.. ليترك فاتنة مثلي جسدها مثل نحت نحتته السماء جزءا جزءا؟ كوني عقلانية ولا تتركي لخيالك كي يكتب أحلامك.. التي تعوضك عن حقيقتك المشوهة."

ردت عليها إيديرا فور انتهائها من الكلام:

"أليست هذه الروح التي تثير سخريتك جزءا من أجسادنا؟ قد خلقت قبل هذه الأجساد الفانية التي تتعبدونها.. وستبقى موجودة حتى بعد موتنا.. حتى بعد موت شهواتنا التي نخدمها ونتفانى في ذلك... غير أن الأرواح قد تغشاها المادة فتبيد وتفنى... وتصبح روحا مادية فانية وإن كانت خالدة أبد الآبدين... أنت حرة... فلتعتقدي ولتؤمني بما تردين الإيمان به... فليس كل عقل يعقل حقائق الكون المحتجبة.. وليس كل فؤاد يفكر بالخالق والمخلوق.. وليست كل الأبصار تبصر ما احتجب عن العامة والخاصة."

أزعج إيلينا هذا الكلام.. إنها عقلانية تفسر المنطق بالموجود أما الخفايا فإنها تنفيها مادامها تغيب عن اللمس..

جاءت كي تقتل تلك السيدة التي أخذت لب حبيبها ماسين.. بكلام تقوله إيديرا بعيد عن معتقد إيلينا... كما أنها تحمل سر ماسين.. أو نوما ولي عرش روما العظيمة.. لا حل لها سوى القضاء دون رحمة عليها... أمسكت ومزقت عليها ثيابها... بعد أن أمرت أحد خدمها الأوفياء بإمساكها لتتكشف تشوهات جسد إيديرا... جن جنون هذه القرطاجية... كيف لجسد بشع ومشوه.. أن يأخذ عقل وقلب ماسين؟ تكلمت بغضب واحتقار:

"جسدك بشع ومشوه!"

أجابتها إيديرا بوثوق:

"ولكن.. بالرغم من أن هذا الجسد المشوه والبشع والذي لا يثير أي رجل... فإن حبيبك غارق في غرامي لحد الثمالة... أوَ تظنين أن قتلي سينهي ذكراي داخله؟ إذا كنت كذلك فأنت مسكينة... غيرتك عليه.. كبدتك الأوهام"

كانت هذه الجملة التي قالتها إيديرا، كفيلة بإثارة غيرة إيلينا الطاغية.. ففقدت سيطرتها لتغرس بكل قوتها خنجرها المسموم في قلب إيديرا، والتي سقطت أرضا على فورها.. وهي تنزف نزيفها الأخير.. لكن غيرتها لم تهدأ حتى وخنجرها المسموم والمثبت على قلب تنارا.. بل أكملت تغرس سيف خادمها في كل

جسد هذه الكفيفة، ليتوقف نزيف دمائها وكل بقية من أنفاسها.

قتلتها... وهي تظن أن موتها سينهي كل خطر شكلته لها خطر امرأة تنافسها في حب مجنون.. وخطر السر الذي تعرفه ويهدد حياتها وأمن قرطاج.

أرسلت خادمها خفية إلى القصر بعد أن كشف الصباح على نفسه وعلى دماء تنارا التي لطخت كل ثوب هذه الأميرة القاتلة لبست ما يستر سوأة فعلتها ورجعت إلى القصر كأن شيئا لم يكن.

لكن... ما كان في قصر رومولوس بعد هنيهات من قدومها أضحى بحق فاجعة عظيمة... لقد قُتِل الملك بيد ابنه ماركوس في لحظات شيطان.. عندما سمعت ذلك إيلينا أدركت أن الدور سيكون على ماسين... تدرك أنه سيفعل ذلك في أي لحظة انسلت كالريح تبحث عن إحداهما... لا بد أن توقف ماركوس أو تنتصر لذلك النوميدي الشهواني الذي اطمأن قلبه بهذا النعيم... لم تكن تتخيل أبدا أن وساوس حنبعل تو في رأس زوجها قد تجلت كأفكار ثابتة وأصبحت أفعال دامية في قصر الملك الذي كان ساكنا قبل مجيئها إليه... رغم حبه المطلق لها إلا أن من الحب ما قتل..

المفارقة أن ماسين لم يكن يبحث عن إيلينا كما تبحث عنه لغة الحب المتناقضة لا تعادل أي عدالة تتوازن فيها الأقوال

والأفعال.. من كان يبحث عنها هو ماركوس... الذي أحبها كما لم يحبها أحد.. والذي كرهته كما لم يكرهه أحد.

التقيا... مجرد النظر إلى ثورته وجنونه وتهوره.. لا يبشرها بخير.. لقد عرفت أن المقصود أو الدور في الموت كان عليها... تركت جنودها الثلاث والذين لا تكافئ قواهم قوى ماركوس وجنوده، والذي عزم على قلب كل شيء في هذا القصر وهذه المملكة... هربت منه مسرعة ولكنه كان يلاحقها... كلما كانت تلتفت وراءها إلا واقترب بسيفه وغضبه وغيرته أكثر.

حتى اكتمل الزمن المتبقي من حياتها فيغرس سيفه في أيسر كتفها ليمزق قلبها... تلك القاتلة منذ سويعات.. تحولت إلى مقتولة في نفس جهة القلب.

دماء غمرت جسدها الجميل... وموت لفى محياها.. وصراخ لماركوس تسمعه روما العظيمة بأكملها... لم يتحمل مقدار هذا الوجع... ففقد عقله وعاد من المجانين.

مجنون إيلينا خرج من قصره وكل ذاك النعيم الأخير... إلى طرقات يهيم فيها... ولي العرش الأحق... لم يعد صاحيا ولا عاقلا ليتحمل هموم روما العظيمة.

تخلى عن كل شيء، لنوميدي.. أحضرته مكيدة، لفاتنة قرطاجية سلبها عقلها وقلبها.. وحولته لغرض في نفسها من زير نساء شهواني... لملك يقود حضارة في مهدها الأول.

ماسين النوميدي ابن ياغورطة تحول لنوما ابن رومولوس الذي ربته الذئبة لوبا كابيتولينا... تملك بقدر قدرته عليه السماء وبنبوءة كتبتها الأمازيغيات على رؤوس الجبال.. أن وليدا للبرق سيتحول من قناص بالسهام لملك يحكم ما وراء البحار... يتملك روما العظيمة دون حرب... مات سره مع كل الموتى مع القرطاجية التي عشقته ومع حبيبته تنارا... التي لم يعرف لها بيتا ولا قبرا... وكان عليه أن يعيش بعقار إيلينا الأحمر طيلة حياته.. بعد أن باحت له الساحرة باكير بسر الترياق... كي يضبط مرض شهوته المستفحل فيه... أعشاب وتعاويذ تخلطها له باكير... وإلا لشغلته نفسه وشهوته المتقدة، عن حكم روما العظيمة... أما بصمة تلك الصوفية تنارا التي تكشَّفت حقيقتها، بأنها زوجة ملك روما إيديرا... فقد أثرت عليه في كل جزء من حياته... عمارة ومعابد وفكر صوفي يبجل الروح عن المادة ويفضل المحجوب عن الملموس... فهل انتصر ذاك الحب الروحي في قلب ماسين؟ كما انتصر حب تنارا في قلبه رغم تشوهات تناقض تصوراته عن مثالية الحب؟

جوف ماسين في حرب دائمة في جنة لذته... وحقيقته.. أنه أحب امرأة واحدة كان كل شيء لا يُمَكِّنه منها...

فهل.. إن التقينا في هذه الحياة، بجسد غير الذي نتخيله.. ويحمل روحا أجمل مما تخيلناها... هل سنحب وبكل صدق حقا مثلما أحب ماسين؟

أحلام الأحمدي: روائية جزائرية.

إنه يخترق حدود واد الجنية الجبلية، ليبدأ بممارسة مشيته نحو حتفه الذي كان يظنه، طريق يضيء مرة ومرة يظلم، كان يسمع صوت الكلاب، الذئاب، يخيل إليه أيضا أن السماء تتوسع كالبالون، يظنها والبرق يخطف الظلام من الليل فينيره، أنه يرى جنيات تطير فوق عروق البرق، جنيات يثرنه مرة أخرى....ابتسم ثم ضحك، نعت نفسه بالمجنون، هذه الشهوة ستصبح كائنا منفصلا عنه، يتملك جسده، إن شهوته لا تعبأ بخوفه، إنها تعيش عالمها الحالم، تبحث عن الأنوثة وإن كانت خيالية وضرب من ضروب هوسه السقيم، شهوة لا تهمها روح ماسين لا تهمها مخاوفه وكل صعابه وبلائه ومشاكله، إنها رغبة شرسة تغريه في قمة روعه وترسم له جنيات ذات أجساد ضوئية، مكتملة الإغراء.

خيال

khayaleditions@gmail.com

لوحة الغلاف للفنان: أحمد بن دبة

9 789931 230069